كوثر الجهمي

الروائية الحائزة
على جائزة
مي غصوب
للرواية

العقيد

THE COLONEL

رواية

دار الفرجاني

كوثر الجهمي

الروائية الحائزة
على جائزة
مي غصوب
للرواية

العقيد

THE COLONEL

رواية

دار الفرجاني

العقيـــد

كوثر الجهمي

كوثر الجهمي، قاصة وروائية ليبية، صدر لها كتابان، رواية «عايدون» 2019، والمجموعة القصصية «حيُّ القطط السمان» 2020. تكتب القصص والمقالات والتقارير لبعض المنصات والصحف المحلية، أبرزها: منصة فاصلة، وموقع هنا ليبيا، وهي عضو في منظمة فاصلة للثقافة والفنون.

حازت الترتيب الأول في مسابقة منظمة فزان ليبيا للقصة القصيرة عام 2016، عن قصة «طرابلس المحروسة 1785».

حازت روايتها الأولى على جائزة مي غصوب في دورتها الأولى 2019.

كوثر الجهمي

العقيد

رواية

دار الفرجاني

دار الفرجاني

الطبعة الأولى 2022

جميع الحقوق محفوظة للكاتبة كوثر الجهمي ©

ردمك ISBN 9789775496904

رقم الإيداع: 19622 / 2022

9 ميدان الذهبي

منشيه البكري

القاهرة

جمهورية مصر العربية

Tel: +201001619295

تصميم الغلاف: أحمد فرج

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

الفهرس

النهاية
ضد مجهول
أنبياء بلا ثورة
الحُبُّ
الحرب
السجن
ثورة بلا أنبياء
الحريــة
البدايـــة

ليس هنالك حلٌّ آخر،

إلَّا الكلمة...

«نزار قباني»

هذا الكتاب إهداءٌ للمؤمنين -مثلي-

بأثر قطرات الماء على الصخر.

«آدم علي المرابط»

النهاية

20 ديسمبر 1994

«هانَت!»

طفِق يهوِّن على نفسه بينما تُنهي هذه الموظفة البطيئة عملَها في استخراج تذكرة عودته إلى ليبيا، بعد عشرة أيام، من مطار هارتسفيلد جاكسون أطلانطا، نحو مطار شارل ديجول ثم إلى مطار قرطاج تونس، ومن تونس برًّا نحو وطنه الذي رحَل عنه يومًا ما في 1987، مؤدِّيًا ما اعتبره حينها واجبًا وطنيًّا.

خيَّمَت أجواء الاحتفالات بالكريسمس على الطرق وواجهات المباني الزجاجية والإسمنتية، زينة تملأ الشوارع والحانات، محلَّات الهدايا مزدحمة، أجراس تُقرع، منتحلو شخصية بابا نويل في محلَّات الألعاب يغرون الأطفال بالدخول رغم أنوف ذويهم، والكثير من الابتسامات، تمامًا نفس الأجواء التي شاهدها منذ أربع سنوات بالضبط، حين حطَّت بهم الطائرة القادمة من أتون حرب تشاد إلى الولايات المتحدة، الفرق الوحيد كان في هيئته، وزنه، وتقوُّس شفتيه... حين جاء هنا للمرة الأولى كان في السادسة والأربعين، بشَعرٍ فوضويٍّ، بلحية غير مشذَّبة، وبشفتين متشقِّقتَيْن، اعتادتا العبوس، وها هو الآن، في الخمسين، يجلس بكامل أناقته في مكتب السفر هذا، ضيفًا ثقيلًا على الموظَّفتيْن المتذمِّرتيْن من زيارته؛ خوفًا من خسارة تخفيضات الكريسمس، ها هو بشعر مُصفَّف، وذقن حليق، وابتسامة واسعة لم يعتدها.

«هذه مناسبة تستحقُّ كأسًا من الرُّمّ»، ليست الكريسمس بالطبع، بل سفره القريب، ولكنه سرعان ما استدرك ألَّا ينبغي له إفساد صيامه عن المشروبات الروحية الذي بدأه منذ شهر، أي منذ قرَّر العودة وبدأ يعُدُّ لها العُدَّة... لم يكن تركها نابعًا من خوف ألَّا يجدها في بلاده، أو ألَّا يعثر على شخص موثوق بإمكانه توفيرها له بصورة سرِّيَّة، كل ما في الأمر أنه لم يُرِد لنفسه عودة مُحمَّلة بخطايا جديدة؛ إذ يلزمه كثير من الوقت لإصلاح خطاياه القديمة قبل تشاد. حافزه كان صورة نال الثَّنيُ منها فتسبَّب في تقسيمها لأربع مساحات يفصلها خطَّان أبيضان، تكاد تقسم الصورة لأربعة أجزاء: صورة له مع زوجته الأولى أيام كانا مخطوبَيْن، صمَدَت فيها ابتسامتها النابعة من قلبها في وجه رمال الصحراء وعرقه ودمائه خلال فترة الأَسْر، صورة حافظ على مداراتها بإتقانٍ عن فاطمة –زوجته الثانية– في ملجئه، هنا في أميركا، رغم أنه لم يحفل بمداراة مشاعره بنفس الكيفية... كيف لا يحتفل بعودته الوشيكة إلى صاحبة هذه الابتسامة؟!

حاوَل صرف تفكيره عن كأس الرُّم مُركِّزًا على مُجسَّم طائرة معدنية لامعة، مرسوم على مؤخرتها شعار يو إس إيرويز، موضوعة على الطاولة الزجاجية أمامه، الطائرة معلَّقة على رأس كرويٍّ يسمح لها بتغيير وضعيتها، يتصل الرأس الكروي

بمطفأة سجائر. حرَّك الطائرة برؤوس أصابعه مُوجِّهًا مقدِّمتها مرَّةً لأعلى ومرَّةً لأسفل، مُصدِرًا صوت صفير يحاكي به هبوطها المُتخيَّل في عقله، ما لبث أن تراجع حين لاحظ الموظفة تتأمَّله من فوق نظارتها...

***

لم تكن الموظفة وحدها مَن يتأمَّله ويراقبه عن كثب، ففي المبنى المقابل، وعبر نافذة بالدور الثالث، كان ثمة من ينتظر عليًّا، يراقب حركاته وسكناته من خلال زجاج المكتب الشفاف المضاء بسرب زينة رأس السنة، يتأفَّف هو أيضًا -كعليٍّ- من بطء الموظفة.

***

- «مُجسَّم جميل!... عذرًا على المقاطعة».

اعتذر بأدب جمٍّ لاعنًا إيَّاها في سره، نادمًا على تركه الموظفة الصغيرة وتَوجُّهه نحو هذه، «هذه السبعينية ينبغي لها أن تجلس في بيتها الآن تخيط جوارب العيد لأحفادها».

قرَّر إشعال سيجارة مستأذنًا الموظفتين، وأمضى ما تبقى من وقت في تأمُّل الصور المغرية المُعلَّقة على الجدار المقابل للمقعد الجلدي الأسود حيث يجلس، صور تحمل معالم مدن شتَّى حول العالم، إيفيل باريس، بيج بن لندن، راقصة أسبانية، أهرامات الجيزة، وحائط بُراق القدس يقف أمامه شابٌّ وفتى بضفائر طويلة تتدلى على أذنيهما، وتلتصق بوسط رأسيهما قُبَّعتان تشبهان صحون فناجين القهوة...

نفض أول كومة رماد تدلَّت من سيجارته، تنهَّد بعمق ثم عاود تأمُّلاته محاولًا التعرُّف على المدن في بقية الصور، لم يميِّز أكثرها إلا من عَلَمٍ يبدو في زاوية ما، منبئًا بهويتها، ليبيا ليست من بينها، «ولن تكون على ما يبدو»، هكذا فكَّر حين تذكَّر أنها في قائمة الدول الداعمة والمُصدِّرة للإرهاب وفق دساتير وقوانين العالم الأول.

- «أثمَّة مشكلة ما؟!».

سأل بتأفُّف وضجر أراد إظهاره؛ إذ لم يكن يقصد من السؤال إلَّا التعبير -بقدر ما استطاع إظهاره من تأدُّب- عن استيائه من تأخُّرها.

- «نأسف... الكمبيوتر يعاني خطبًا ما... ولكن لا عليك، أصلحتُ المشكلة، ولم يبقَ الكثير لتَجهَز تذكرتك».

لحظات ثقيلة أخرى، ثم أقبل مادًّا كلتا يديه مُستلِمًا ظرفًا أبيض مستطيلًا يحوي جواز سفره الأمريكي مع تذكرة ذهاب فقط نحو شارل ديجول باريس، ومنه إلى قرطاج تونس.

ابتسم امتنانًا وغفرانًا للموظفتين، رغم أن الأخرى لم تقدم له أية خدمة غير ابتسامة اصطناعية بين الحين والآخر مُحاوِلَةً تصبيره على تأخُّر زميلتها دون أن تعينها أو تعينه!

وعند باب مكتب الحجوزات وقف يتأكَّد من سلامة أوراقه وجواز سفره الأمريكي، وموعد الحجز، تجرفه حماسةٌ عارمة نسي منذ زمن كيف يتعامل معها، نزل بخفَّةٍ أفقدته الإحساس بوزنه على سلم البناية، طائرًا من الدور الأول إلى الدور تحت الأرضي حيث مرآب السيارات، متجاهلًا تمامًا استخدام المصعد، أين له أن يبدِّد كل هذا الحماس وهذه الطاقة التي تكاد تتفجَّر من مساماته إن لم يفعل على السُّلَّم؟

***

وفي المبنى المقابل اشتعَلَت أيضًا حماسة الجالس يراقب عليًّا منتظرًا خروجه، حماسة من نوع آخر أكثر التهابًا. جلس الرجل الذي بلغ خمسينه –أيضًا– للتوِّ يفرك أصابعه، وهو رغم عمره هذا يبدو للناظر سبعينيًّا بالبياض التام فوق رأسه، والتجاعيد المتجمِّعة على أرنبة أنفه الضخمة وحول عينه الوحيدة، العين التي خسر أختها منذ صِغَره؛ خطأٌ ارتكبته ممرِّضة شابة صغيرة فاقدة للخبرة، في عيادة ما مُهمَلة، في بلد شيوعي فقير.

لا يذكر عن بلده ذاك إلَّا دموع والدته ونحيبها، وأغنية روسية لطالما هدهدته بها كي ينام، أما والده فلم يعرفه، لديه صورة له بزيِّه العسكري حين كان قائد كتيبة ما في أحد أفواج المدفعية السوفييتية المضادَّة للطائرات، لم يتعرَّف على والده الذي خرج من البيت ذات يوم بعد انتصار روسيا في الحرب ولم يَعُد، كان في حينها جنينًا في بطن أمه. وُصِم والده بالخيانة العظمى، وتمَّت تصفيته، وما فتِئَت والدته حتى موتها تذكر كل شيء بتفاصيله، وتودُّ لو تنسى.

***

أمَّا عليٌّ، فقد تبدَّدَت طاقته وحماسته لحظة وصوله لسيارته في مرآب المبنى تحت الأرضي، حين لاحظ إطاراته الأربعة مفترشة الأرض الإسمنتية، وقف للحظات فاغرًا فمه، عاقدًا حاجبيه، متأمِّلًا لكل إطار على حدة، وكأنما يبحث بينها عن اسم الفاعل أو دوافعه من وراء هذا التصرُّف الطائش.

ضرب بقبضتيه سقف السيارة لاعنًا حظَّه، ثم شعر بالإرهاق فجأة، استسلم في مقعده خلف عجلة القيادة، ليس لديه جهد كافٍ لاستدعاء ميكانيكي ما، فوراءه جهدٌ من نوع آخر، ثمة حلفاؤه الذين سيصيرون بعد أيام قليلة ماضيًا منتهيًا، كيف سيقنعهم بقبول انسحابه وُدِّيًّا دون اضطراره لخوض جولة من تراشُق الاتهامات والتخوين؟! ثمة فاطمة المتردِّدة بين طلب الطلاق أو البقاء على ذِمَّته على أمل عودته، تُمنِّي نفسها بزُهد زوجته الأولى فيه كونه تزوَّج بثانية، تُمنِّي نفسها بشوقه لآدم، شوقه لابنه –الذي أنهى للتوِّ عامَه الثاني– سيدفعه للعودة بلا شكٍّ، تُمنِّي نفسها باعتياد الأولى تلك وابنتها على فراقه، وتمنياتها لا تُمثِّل له إلا هواجس يخشاها بقدر ما تتمناها هي وتطلبها.

فاطمة الجميلة الغضَّة، كيف ستهون عليه؟ يعرف جيدًا أنه سيشتاق لرائحة جلدها الأبيض حدَّ الذهول، سيشتاق لتخليل سواد شعرها، ولنظرتها العنيدة في كل مرة تكتشف فيه صفةً لا تعجبها. كم أرادت تغييره، غزالة لم تفعل. ها هو يعقد المقارنات في محاولات حثيثة لتبرير تركه لهذه المرأة التي لم تتخطَّ عامها الرابع والثلاثين بعدُ، كلما تذكَّر ما سيفعله بها انتابته حالة من الشعور بالغثيان، حين ترك غزالة كانت هي أيضًا في ثلاثينياتها، لماذا يُصرُّ على تحطيم قلوبهن في صميم شبابهنَّ الطري؟! ولكنه طلب من فاطمة العودة معه، ورفَضَت... رَفضُها منطقيٌّ لعدَّة أسباب لا لسبب واحد، ورغبته في العودة منطقية أيضًا، يحاول نَيْلَ وعدٍ منها بالسماح له بزيارة آدم مرة كل عام، تخبره أنها لا تضمن ذلك؛ فهي وإن رَضِيَت فإن أباها لن يفعل.

يُحاول إقناع ضميره؛ غزالة وحسناء أحوج من فاطمة وآدم له، تعيشان وحيدتيْن، في بلد مُبتَلًى بفساد يستشري في جميع مفاصله كسرطان، بلد يعاني حصارًا، واستغلالًا داخليًّا بشعًا تحت هذه الحُجَّة، وفوق كل هذا وذاك، بلد لا يرحم -اجتماعيًّا- إناثًا يَعِشن بمفردهنَّ.

غزالة... غزالة... سيطَرَت على أحلامه مذ عرف بأنها أبقَت على نفسها دون زواج رغم اعتقادها بترمُّلها، سيطَرَت على تفكيره بصورةٍ أخذته من كل ما يدور حوله، من أحاديث رجال المعارضة وطموحاتهم، من عربدة الحانات وإغرائها، من محاولات بَرَكة الحثيثة لردعه، ومن أسرته الجديدة التي أنشأها هنا مُحاوِلًا تجاوُزَ ما خلَّفه وراءه في ليبيا يومًا ما. تراها تغيَّرَت إلى أي حد؟ لماذا اخشوشن صوتها؟ هل نال الشيب من رأسها؟ ازدادت حنطيَّتها أم فقَدَت ألَقَها؟ هل تنسى يا ترى ما كان بينهما قبل رحيله؟ هل غفَرَت له؟ إن لم تفعل، فهل تكون عودته صكًّا لغفرانها؟ يدرك جيدًا كم تَسبَّب لها بالأذى، هو لم يُؤذِها مباشرة، ولكنه شارك بسلبيَّته في إيذائها، وبموقفه المتفرّج من سُلطة أُمِّه، وسَلاطة لسان أشقائه وزوجة الكبير من بينهم؛ زوجة أخيه عُمر... لم يفكر كثيرًا في حالهم من بعده، «لن يكون حالهم أسوأ من حال غزالة التي تركتها بينهم موصيًا إيَّاها بعدم الرحيل في غيابي بعد تأكُّدنا من حملها الثاني... هل تذكرني حسناء يا ترى؟ أتراها تغيَّرت بالكيفية التي سأعجز فيها عن التعرُّف إليها؟ لا بُدَّ أنها في سنوات مراهقتها الآن... في الرابعة عشرة... آه! تُرى، كم قاسَت غزالة في غيابي؟ ومَن كان أو ما كان السبب الرئيسي فيما قاسَتْه؟»... يُحدِّثه صوتٌ ما بأنه لو سألها لأجابته: أنت!... ولكنه يأبى الاستماع له.

«لسن سواء!»، لا... هكذا واصل تفكيره محاولًا إقناع نفسه بصواب ما هو مُقدِمٌ عليه، لَسنَ كذلك في قلبه على الأقل، وبغضِّ النظر عن الظروف المادية والقيود الاجتماعية التي قد تنال من إحداهن دونَ الأخرى، هو لا ينسى يومَ وَصَلَه بريد من نسيبه الحاج «مصطفى الكريتلي»، لماذا كذب عليه نسيبه وأوهمه بزواجها من آخر؟ هذا ما لم يفهمه... لا ينسى حجم الحزن الذي فاق غضبه، لا ينسى يأسه لحظة قراءته تلك الأسطر القليلة، ولن ينسى بالطبع كيف اندفع صبيحة اليوم التالي متَّخذًا قرارًا ارتجاليًّا متهوّرًا بغسل ماضيه ونفض يديه من كل ما علق بهما، والتورُّط في الحاضر، منتقِلًا بذلك من طور المعارضة بالسلاح، إلى المعارضة بالكلمة.

خبر زواج غزالة أثار جنونه، فيما وجد نفسه متسامحًا تمامًا مع فكرة طلاق فاطمة إن هي أرادت ذلك، حتى وإن كان دافعها الزواج من رجل آخر!... ربما هو فقط يشعر بذنب أكبر إزاء زوجته الأولى وابنته التي لم تتأتَّ لها فرصة التعرُّف عليه رغم سنواتها السبع قبل رحيله عنها، أو ربما ببساطة لم يَعُد كالسابق، ربما قضَت الحرب والهجرة على ما تبقَّى من غيرته وانجراف مشاعره الذي عرف نفسه به سابقًا تجاه غزالة، ذلك الانجراف الذي لم تشهده إلا هي، فيما بقِيَت صورته أمام أهله وأهلها رَجُلًا جامِدَ المشاعر، وجهًا من دون ملامح. ابتسم حين فكَّر في كل تلك المخطَّطات التي أعدَّها لتعويضها، لن يسمح لأحد –ولا حتى لأمه– ولن يسمح لشيء –ولا حتى لقَسَمِه العسكري– بأن يهدر المزيد من السنوات في سوء الفهم، سوء النية، وسوء الحب!

***

بدأ صاحب العين الواحدة يفقد صبره ويستجديه، لم يسبق له أن خانه سيناريو رسَمَه للتخلُّص من أحد الخَوَنة...

«تبًّا له... إطارات السيارة مثقوبة جميعها! ما الذي يفعله في المرآب كل هذا الوقت؟!».

خشي خيانة عينه الوحيدة له، عينه التي ما خذلته يومًا رغم وحدتها. تساءل إن كان عليٌّ قد وجد حلًّا آخر لم يضع له هو أي حسبان... فأقرب محل إطارات يبعد عن المبنى مسافة 5 أميال على الأقل، لا... لن يفعل؛ فهو مستعجل، لديه موعد مع الرجال عصرًا، لن يضيّع وقته. لم يفقد صاحب العين إيمانه...

وفي اللحظة التي بدأت عضلاته بالاسترخاء، جحظت عينه باتساعٍ شاسع كأنما لتعوِّض فقدان الأخرى فرصتها في الجحوظ... إنه هو! يخرج من بوابة المبنى، يوصي حارس المرآب، ثم يتمشى ببطء، وكما هو متوقَّع، يقف على ناصية الرصيف قرب الإشارة، حاشرًا يساره في جيب جاكيته الجلدي، بينما يمسك بيمينه ظرفًا أبيضَ، يرفعه مناديًا للتاكسي القادم على بُعد أقدام، الشارع مزدحم بالمارة والسيارات، وقبل وقوف التاكسي مباشرة، كانت تلك العين قد اختارت البقعة المناسبة، استجابت لها إصبع يمناه المُغلَّفة بقفاز، ضغَطَت بناء على أمرٍ أصدره على زناد المسدس المزوَّد بكاتم صوت، يتسلَّل طرف مقدِّمته بهدوء من شقٍّ بالنافذة.

في وسط الجبين تمامًا، لم تختلف العين مع الإصبع يومًا، كانا على توافُقٍ تامٍّ على الدوام، ابتسم الرجل، بهدوء فكَّ مُسدَّسه، دسَّه رفقة قنينة مياه وبيرة في حقيبة سمسونايت سوداء صغيرة، ارتدى نظارته الشمسية التي تقيه النظرات الفضولية المتسائلة عن حكاية العين المفقودة، خرج من الشقَّة مغلقًا الباب بالمفتاح، داسًّا إياه تحت الدواسة كما أوصوه تمامًا، خرج من العمارة، وقف يُتَمتِم بصلاة للرجل الملقى في الشارع بعينين مُشرَعتَيْن نحو المجهول، والناس متجمِّعون حوله. قاطعته صفارات سيارة الشرطة أو الإسعاف؛ لم يُميِّزها؛ فقد انطلق فورًا ليواصل بقايا مهامه اليومية.

***

قبل انتقاله للعالم الآخر، وفي اللحظة التي لمح فيها علامة التاكسي البلاستيكية بارزة على سطح سيارة وسط الازدحام، في تلك اللحظة بالتحديد، كان عليٌّ قد تخلَّص تمامًا من عقدة الذنب، وحدَّثته نفسه بأن كل شيء سيسير على ما يرام، وبأن هواجسه ليست إلا محض قلقٍ قهري يعانيه منذ أَسْره في تشاد، وبأنه –أخيرًا– يمكنه اعتبار نفسه إنسانًا حرًّا، وفي ذات اللحظة سمع صوتًا بدا له مألوفًا ومحبَّبًا، يصرخ بقوة وبلهجة كلهجة فاطِمة: «عَليّ... رُدّ بالك... ارجع ارجع!»، ولم ينتظره الموت للتعرُّف على صاحب الصوت.

تجمَّع الناس حول جُثَّته غير واثقين من مصيره، انبثق الدم ساخنًا كالنافورة من منتصف جبينه، فيما شرَدَت العينان، استمرَّ القلب في الخفقان لمدة وجيزة، كان في تلك اللحظات يمرُّ بأصفى لحظات عمره، صمت دافئ في عالمه الجديد، حيث عاش مجددًا لحظة نادرة لم يذكرها سابقًا، كان يحتضن فيها زوجته الأولى، وابنته حسناء.

***

بينما كانت النار تهسهس ملتهمة الحطب في مدفأة حائط بغرفة مكتب مستدير، كانت أعصاب الرجلين الجالسين أمام طاولة المكتب تلتهم خلايا عقولهم، حالة من التوتر بَدَت جليَّةً في نفور وارتعاش شامة أحدهما، شامة ملاصقة لفتحة أنفه اليمنى، رجل ستّيني لم تعُد أعصابه تحتمل وطأة هذا النوع من الضغوط، حاول التوقف عن طقطقة أصابعه فوق لوح المكتب بالمسح فوق كرشه، كما جرت العادة، ولكن حيلته هذه المرة لم تنطَلِ على عقله، وبدأ يُربّت بأصابعه عليها، احمرَّ بياض عينيه الرماديتين، تنحنح، أغمض عينيه ضاغطًا عليهما بسبابته وإبهامه:

– «ربما لم يجدر بنا تكليفه...».

– «مهلًا مهلًا!». انتفض الآخر، خمسينيٌّ نحيل، بشعر مجعَّد، وأنف معقوف لأسفل... «فاسيلي يعرف كيف يتصرف حتى إن فشلَت العملية... ألم تؤكد لي ثقتك به؟».

– «بلى... أعني.. ربما كان الأجدر بنا التمهُّل في اتخاذ مثل هذه الخطوة، ربما...».

قاطَعه الآخر حانقًا: «آلآن؟! فات الأوان، أرجوك لا تبدأ مجدَّدًا، هذه أوامر... أمر مفروغ منه... غير قابل للنقاش... مفهوم!».

هزَّ العجوز رأسه فهمًا، فيما ازداد نفور شامته واحمرَّت المنطقة المحيطة بها:

– «ليس ثمَّة مُبرِّر لخيانة الوطن... وليس ثمة ما يغفرها!».

– «ولكننا لم...».

– «انظر... أنا أحترم حساسية سنِّك، ربما لم تعُد مناسبًا لمركزك».

– «لا... أرجوك... ليس مجدَّدا! ليس لسنِّي شأن بالأمر... كُفَّ عن التلميح به! لا تنسَ تاريخي ولا تنسَ أقدميَّتي... والأهم من كل ذلك لا تنسَ ما الذي قدَّمته...».

هزَّ الآخر كتفيه، تناول سيجارة له وللعجوز المتوتر، أشعلهما، وجلسا في صمت مترقِّب، يفكر كلٌّ منهما من زاوية مختلفة.

قبل أن ينتهيا من تلك السيجارة، كان قد وصل ضيفهما المنتظَر.

– «هل مات مباشرة؟!». سأل العجوز وشامته ما زالت ترتعش.

– «بالطبع... ليس من عادتي تعذيب ضحاياي؛ فأنا إنسان مؤمن كما تعلم».

فرَّت نصف ضحكة مكتومة من الآخر، تأمَّل العين الوحيدة في وجه هذا الرجل: «أرجو أن تكون قد احتَطتَ كما ينبغي كي لا يُعثر على دليل...».

– «أراكما نسيتما أنني متمرِّس في هذا المجال... اطمئن»، لاحظ ارتباك العجوز فالتفت نحوه:

– «هذه ليست عملية اغتيال، إنها ثمن خيانة العهد!».

– «أخبِرْ صاحبك أرجوك!»، قال الآخر بنصف ابتسامة

تردَّد العجوز قبل أن يتظاهر باللا مبالاة: «ليس ثمة ما يُقال، انتهى كل شيء على أي حال يا فاسيلي»، وقف مادًّا يده مصافحًا ذا العين الواحدة، في حركة تشير إلى انتهاء لقائهم، تأمَّلَت العين تلك اليدَ الممدودة دون ردِّ فعل، فهم العجوز: «آه... آسف»، قالها ضاربًا بقبضته جبينه واتجه فورًا نحو مكتبه، فتح درجًا كان مُغلقًا بمفتاح، أخرج منه طزينات دولارات من فئة المئات، عدَّ منها ما يلزم وأعاد البقية...

– «هاك... شكرًا لك».

تناولها وطفق يعدُّها مغلقًا عينه الوحيدة بين الحين والآخر محاولًا التركيز؛ إذ لطالما واجهته صعوبة في عمليات العدِّ، ولم يستطع التخلُّص من آثار بقائه دون تعلُّم حتى فترة مراهقته المتأخرة. نهض داسًّا مستحقاته في جيبه، مدَّ يده مصافحًا الرجل الواقف متفرجًا، ثم صافح العجوز واحتضنه هامسًا في أذنه: «ليس عليك أن تأسى على الكلاب، لو كان مكانك، ما رحمك...»، اتجه نحو باب المكتب ثم التفت قبل أن يحرك مقبض الباب:

– «أليس كلبًا ضالًّا؟ (قهقه ساخرًا) لقد استحقَّ لقبه على أي حال».

أشار له العجوز بكفِّه: «ليس هناك من داعٍ للمزيد... انتهى الأمر».

– «فعلًا، عليك أن تكون فخورًا بولائك... انتهى الأمر، انتهى عليٌّ المُرابِط».

وقف عند الباب من الجهة الأخرى شابٌّ يحمل دفترًا بيد، والأخرى مقبوضة على وشك أن تطرق الباب، وقف واجمًا بعد سماعه آخر ثلاث كلمات تفوَّه بهما رجل ما يقف في الجهة المقابلة، التفتَ على إثرها فورًا عائدًا من حيث أتى، كأنه لم يسمع شيئًا.

ضد مجهول

ديسمبر 2015

مضى شهرٌ على جنازة جدِّي...

وما زالت أمي ترتدي الأسود، لا تفارق مقعدها قرب النافذة بغرفة جدِّي، تتطلَّع بأسى إلى صورته، وتقبِّلها، ثم تعود لنفس الصفحة من نفس الكتاب الذي رأيتها تقرؤه منذ عودتي إلى أطلانطا، أي منذ شهر ونصف، لم أستطع فهم غرابتها الجديدة هذه عليَّ، إلَّا برغبتها العميقة في الهرب مني، رغم خوفها من رحيلي مجدَّدًا، أتراها تهرب مني، أم من سيرة والدي التي أتيتُ بها من رحلتي إلى تونس وطرابلس؟ هل تخشى أن تعرف عنه ما لم تعرفه من قبل؟ أم أنها تخشى الوحدة، هي التي لم تعرف من الرجال في حياتها إلا ثلاثة: أباها، وزوجها، وأنا، ابنها... رحل اثنان وبقيتُ أنا، تستبقيني فتجبرني على ترك شقتي والعودة للإقامة معها بعد استقلاليتي التي اعتدتُها لسنوات، تستبقيني خوفًا لا رغبةً... يوجعني هذا!

كانت حالة جدِّي سيئة للغاية! وهذه التجربة في حدِّ ذاتها واحدة من أسوأ التجارب التي مرَّت بها أمي وحيدة بينما كنت أنا هناك، أكتشف ما خفي عني وعنها من تاريخ والدي، وفيما أفعل ذلك أكتشف ذاتي أيضًا، أشتعل حيرة، وأذوب عشقًا، وآخر ما أفكر فيه هو الاتصال للاطمئنان على حال جدي!

لم يُمهله العمر ليراني كما طلب حين كنت في طرابلس، ولم يُمهِلني للاعتذار منه على تعنُّتي بالسفر إلى ليبيا؛ فقد دخل في غيبوبته التامَّة قبل عودتي بيوم. شعرتُ بعدم الراحة بسبب ما جرى، فهو الذي ربَّاني، ولم أعرف أبًا غيره، ولكن مشاعر أخرى نالت منِّي بعد دفنه بثلاثة أيام وانقضاء أيام العزاء، مشاعر لم أجد وسيلةً لتصريفها، وأنا الآن أتفهَّم تمامًا كل ما مرَّت به أختي «حسناء» من قبل.

وما زلتُ رغم ألم أمي، والتحديات الجديدة التي تقفز أمامي واحدة تلو الأخرى أميل للغياب في ذكرياتي الخاصَّة جدًّا، الحميمة جدًّا، تلك التي ربطتني بزوجة والدي الأولى غزالة، وابنتها، الأخت التي جاءتني كهدية متأخِّرة: حسناء... وبيت عمي عمر، ابنه هشام وابنته سارة على وجه التحديد... آه سارة! لِمَ أسأتِ فهمي؟ لِمَ جعلتِ من جنسيتي المزدوجة، وثقافتي المزدوجة، لعنةً ومطبًّا يقف عقبة بيننا، كمطبَّات شوارع طرابلس وأزقَّتها؟!

انهمكتُ خلال رحلة عودتي وليالي العزاء، وما تلاها بتفريغ تسجيلات شهادات عمِّي عُمر المرابط، والخالة غزالة الكريتلي زوجة والدي الأولى قبل حرب تشاد، وبالطبع بَرَكة أقرب أصدقاء والدي، فرَّغتُها باللغة العربية فاستغرق مني الأمر أطول ممَّا ينبغي، ولم نتمكَّن من الجلوس معًا (أنا وبَرَكة) للإدلاء بشهادته إلا بعد انقضاء أيام العزاء. مادة كتابي عن سيرة

والدي الراحل شبه جاهزة للبدء في ترجمتها ومن ثمَّ إعادة كتابتها بعد أن توفَّرت بالكامل، أو فلنقُل بشكل شبه كامل بعد عودتي من طرابلس (بخُفَّيْ حُنين) كما وصَفَت سارة حالتي قبل السفر... كلماتها وأمثالها الشعبية التي يحلو لها استخدامها في حديثها محفورة في صفحة دماغي، وفي ثنايا قلبي، كيف تعثر فورًا على حكمةٍ ما أو قَولٍ مأثور أو مَثَل شعبيٍّ في كل موضوع نتحدَّث عنه بدقَّة شديدة؟! آه لو يتسنَّى لي الحفر في قلوب قُرَّاء كتابي الأول كما فعَلَت بي ابنة عمي هذه، كنت سأضمن تصدُّر كتابي قائمة المبيعات في كل العالم.

تبدَّلَت عاداتي، أحاول التواصل معها فلا تستجيب، أراسل هشام محاوِلًا تشمُّم حالها عبره فأُخفق، ما الذي تعنيه كلمة «الحمد لله» في كل مرة أسأله عن حاله وحال أبويه وأخواته مرةً واحدة؟ أليس حمد الله فعلًا دائمًا، سواء كنَّا بخير أو لم نكن؟ ثم أيقصد نفسه فقط أم يقصدهم جميعًا؟ وهل سيخبرني إن كانت سارة وحدها تمرُّ بوعكة صحية تمنعها من الرد على رسائلي مثلًا؟ كيف أعرف سبب هذا الغياب؟ هل حقًّا استفزَّها موضوع كتابي كما قالت؟ هل حقًّا أحبَّتني أم أنها توهَّمَت ذلك؟ أم أن كِلينا واهِمٌ؟

مع بنفسجيَّة ثوب الشفق أبدأ يومي، لا في الركض كما اعتدتُ قبل مشروع كتابي، بل في تقليب أوراقي، والاستماع مرارًا وتكرارًا لتسجيلاتي، وتأمُّل بعض السيلفيَّات التي جمعتني بهؤلاء الذين هزُّوا عرش الثقة والاطمئنان والراحة الذي كنت أتربَّع عليه... يمكنني تأريخ حياتي بما قبل الكتاب، وما بعد الكتاب... بَوْنٌ شاسع!

ورغم مكوثي في بيت عمي عمر أكثر ممَّا فعلتُ عند الخالة غزالة، فقد احتلَّت حسناء مساحة عظيمة من ذاكرة الصور التي التقطتها خلال تلك الرحلة، ومساحة أعظم في وجداني. أختي التي لا يربطني بها أي شبه ملموس، والمارُّ إلى جوارنا في الشارع لم يكن ليحزر أن هذه الصهباء غجرية الشَّعر الممتلئة بالصحة هي أخت هذا الشاب شرقيِّ الملامح، هزيل البنية، مكسور اللسان، الذي هو أنا! فما كان من الفتى بياع الفُلِّ في شارع بورقيبة إلا أن يخمِّن غير ذلك ويتجرَّأ بأن يقول: «اشريلها ان شاء الله تعرِّس عليها» ظانًّا أنها مخطوبتي! واحدٌ من أطرف المواقف التي مرَّت بنا، لم أفهم الفتى في البداية حتى أعادت لي حسناء ما قال، اشترت منه باقة فُلٍّ هزيلة، ثم نصحته بعدم الاستعجال: «هذا خوي»، ضحك الفتى مُكذِّبًا إيَّاها... ولم نتَّفق حتى في لهجة واحدة؛ فقد تأثَّر لساني بلهجة أمي وجدِّي البنغازية، فيما احتفظت حسناء بلهجة طرابلس، الناعمة اللذيذة على لسان النساء خاصَّةً، أم أني منحاز إلى أختي يا ترى؟! المهمُّ أنَّ أجمل ما نلتُه وسأناله من هذا الكتاب، هو تعرُّفي عليها، لماذا انتظرت كل هذا الوقت لأفعل؟! لو حدَّثني أحدهم عنها يومًا، لو أتيحت لي فرصة العِلم بأن أختي التي يفصلني عنها محيطٌ وبلاد كبيرة إنسانة معجونة بالرقة، وخفَّة الظِّلّ، والإصرار والطيبة والصدق، لو أخبرني أحدهم بذلك لما انتظرتُ كلَّ هذا الزمن كي أجتمع بها، وأكتشف أن لي وطنًا آخر في قلب آخر بعيد، ولكنه دافئ. «آسفة لأني لم أبحث عنك بعد أن عرفت بك، منذ بضعة أشهر!»، هكذا اعتذرَت فأفحَمَتني، ولم أقُل لها بأني أعرف بأنها موجودة منذ طفولتي المبكِّرة حتى أني لا أذكر تحديدًا متى وكيف أخبروني بالأمر، ورغم هذا ظل وجودها في ظلِّ

الذاكرة، في تلك المنطقة التي نحكم على ما فيها بالموت، ولا نجرؤ على نبشها أو اكتشاف حقيقة المدفون بها، ولم أكن لأفعل لولا فكرة هذا الكتاب.

تراقبني أمي في بعض لحظات صحوها، تهزُّ رأسها وكأنها تقول: «مَن هذا المجنون؟ لم أعُد أعرفه!»، وأظنُّها فَهِمَت أن ثمَّة غبارًا سحريًّا عدتُ به من ليبيا، غبارًا ذهبيًّا برَّاقًا كبريق شقَّيْ عينَيْ سارة حين تضحك... نعم، لم أتعلَّق بأختي وحسب، بل تعلَّق قلبي –ولأعترِفْ– بابنة عمّي أيضًا، مع الفارق في نوع التعلُّق ومدى لينه أو قسوته... أصبتُ خلال تدويني للشهادات بعضًا من رحيق هذا الغبار علَّه يكون تعويذةً سحريَّةً لكتابي، ثم أنطلق إلى الكلِّيَّة كعادتي، وفي المكتبة، وخلف الواجهات الزجاجية، على طاولاتها البُنِّيَّة الناعمة والتي تمنح خصوصية للجالسين عليها بفواصل خشبية رقيقة، أجلس أراجع تفريغات الشهادات بشوقٍ جارف، تدغدغني بطني في كل مرة أبدأ فيها هذه العملية كفراشات شقَّت للتوِّ شرانقها! أترجم بعض الكلمات المحلية الصعبة وأُعيد تنظيم الفقرات، أُعَنوِنُها وأرتِّبها في بطاقات صغيرة وفق ترتيبها الزمني، أُسجِّل ملاحظاتي عمَّا يجب المرور عليه سريعًا وما يتوجَّب عليَّ التركيز على تفاصيله لغايات سرديَّة أدبية بحتة، كل هذا بينما تسلك خيوط الشمس مسلكها بين الأبنية الشاهقة المحيطة بمبنى الكلية، ولا تستقر في صدر السماء إلا وقد أنجزتُ ما يقارب ألفَيْ كلمة، وهذا إنجاز لم أكن أحلم بالوصول إليه، دون عناء يُذكَر، تبدو الكلمات وكأنها نهر ينساب عبر أصابعي، حجم السعادة التي تحملها لي هذه الصباحات يُشعرني بالذنب أمام حزن أمي وغيابها.

لطالما كنت أكثر شجاعةً حين أكتب وأكثر وضوحًا وأكثر سعادة، بالإنجليزية التي يتحدَّث بها عقلي، وبالعربية أيضًا –رغم بطئي فيها–؛ وهذا ما جعلني غريبًا وسط أقراني من الجالية الليبية المولودين هنا مثلي تمامًا. بالإنجليزية يتسنَّى لي التلاعب بالكلمات، فأُبسِّط ما شئتُ، وأهوِّل ما شئتُ، ولكني رغم هذا أقع تحت تأثير سحر ما حين أقرِّر الكتابة بالعربية، أو أترجم ما كتبت إليها. ولعلِّي سعيد الحظ بنيْلي مقدارًا عظيمًا من التعليم باللغة العربية وتعلُّم القرآن فيما حُرِم من ذلك كثيرٌ من أبناء الأصحاب والمعارف الليبيين والعرب، يعود هذا الفضل لجدي الراحل، فقد حرص على إجادتي للعربية، وكان يخبرني دومًا بأنه عليَّ الاستعداد لمرحلة ما بعد القذافي، وبأن أمثالي –ولا أدري من أين كانت تأتي ثقته– هم الأَوْلَى بتقلُّد السلطة والتنظيم في البلاد بعد سنوات الفوضى.

كان شديدَ الأمل فيما يتعلق بهذا الجانب، ولا أدري متى توقَّف عن تغذيتي بأمنياته هذه، وهل علَّمني العربية حقًّا لأجل هذه الغاية؟ إذ إنه لم يبالِ بالعودة مُطلقًا، ولم يتحدَّث عنها حتى في أوج ثورة فبراير عام 2011، رغم ظهوره ضيفًا عبر الأقمار الصناعية لعديد القنوات الفضائية التي بثَّت تفاصيل الثورة الليبية وغذَّتها. أنا سعيد الحظ بتعلُّم العربية بالطبع، ولكن لأسباب تختلف تمامًا عن أسباب جدِّي فلا نِيَّة لي بالدخول إلى المعترك السياسي في البلاد لا من بعيد ولا من قريب... ولا حتى من البقعة التي تنتصفهما وهذا ما كان ينبغي على سارة أن تعرفه ولكنها أَبَتْ!

للعربية سحرٌ لا يدركه إلا من حُرِم من ممارستها في حياته اليومية، جدِّي كان يُشبع هذه الرغبة لديَّ، وأمي بين الحين والآخر فعَلَت أيضًا، وبكل تأكيد العزيز بَرَكة.

كل المعطيات أمامي تؤدي إلى نتيجة واحدة: إلغاء فكرة الكتاب برُمَّتها، فأمي التي لم آخذ عنها إلا لكنتها البنغازية المحبَّبة لقلب سارة، عارَضَت بشدَّة سفري ليبيا، وحُجَّة الكتاب لم تقنعها؛ هذا لأنها من النوع الذي يربط الأفعال والأرقام بأحداث مؤسفة أو سعيدة حدَثَت في حياتها، يسيطر هذا على حدسها بتشاؤمها أو تفاؤلها، فهي تظل تتفاءل بالأرقام المتعلِّقة بتاريخ مولدها أو مولدي، فيما تتشاءم من الرقم 69، لمجرد أنه يحمل تاريخ رحيلها عن بنغازي إثر انقلاب 69 الذي يسمِّيه عمي عُمر وكثيرون غيره حتى اليوم بثورة الضباط الأحرار، لم تكن أمي قد تجاوَزَت التاسعة من العمر حينها، وذكرى الخوف والرحيل المستعجل والمصير المجهول ظلَّت قابعةً في لا وعيها، هذا ما تَسبَّب في معارضتها التامة لرحلتي، إضافة لرفضها عملية نبش ذاكرة والدي، وكأنها تخشى عودته حيًّا عبر سيرته التي سعيت لتدوينها...

أمَّا توماس، صديق الطفولة الذي لطالما راهن على مستقبلي ككاتب مشهور، يحرِّضني كلَّ يوم على المضي قدمًا مُعلِنًا عن رغبته في البحث عن ناشر يقفز بي إلى عوالم المجد والشهرة العالمية، بعد أن بدأ عمله في واحدة من أفضل الوكالات الأدبية هنا في أطلانطا، توماس العزيز هذا لا يستطيع تفهُّمَ حقيقة أن والدي قُتِل بعد قراره العودة لوطنه في أيام كهذه من ديسمبر، وأني في الحقيقة، لم أتعايش –رغم بلوغي الثالثة والعشرين من عمري– مع فكرة أن والدي قرَّر يومًا ما الرحيل عنِّي ولم أكن سوى ابنِ عامَيْن! لقد قُتل عقب خروجه من مكتب الحجوزات، ولأن مقتله ظل مُقيَّدًا ضد مجهول في الأوراق الرسمية –وإن اعتبرناه ضمنيًّا واحدًا من جرائم الأمن الخارجي للنظام السابق– فقد ظلَّت أمي تتخوَّف من المجهول، من كل ما هو آتٍ نحونا أو ذاهبون نحن إليه دون أن ندرك كينونته. منذ تلك الحادثة ظلَّت تتشاءم وتترقَّب الأخبار السيئة كلما همَّ أحد أصدقائنا للعودة إلى ليبيا، حتى بعد انتهاء حكم القذافي، ربما «المجهول» الذي قُيِّدَت ضده القضية تَعدَّى في ذهنها زبانية النظام السابق، وبقيت شوكة الريبة عالقة في حلقها... وما زالت تحتفظ بتذكرة العودة التي لم تحدث. اعتقَدَت أني سأُقتَل أو سأموت بسببٍ أو دون سبب لمجرَّد فكرة تكرار ما فعل والدي تقريبًا، رغم إدراكها بأني نويتُ زيارة ليبيا لا العودة إليها كما نوى والدي. لا أظن أنه يحقُّ لي أصلًا استخدام كلمة «عودة»؛ فهي لا تناسبني؛ العودة تكون لمستقَرِّ الإنسان ومحلِّ سكنه الجسدي والعاطفي، لا لبقعة جديدة يجهل رائحتها ولهجة أهلها وأمزجتهم، اللهمَّ إلَّا من بعض ما حافظ عليه أهلنا وأقاربنا وأصحابنا هنا من الليبيين في أمريكا، بخلفية ثقافية تبرز في الأعياد والمناسبات الاجتماعية مختلطة ببعض ما اكتسبناه من ثقافة غربية، فيما نفقدها أو ننساها بقية العام.

ليست أمي فقط هي التي عارَضَت، لقد فعل بَرَكة أكثر منها، مع اختلاف الأسباب، ظل يقنعني بأن شهادته وحدها في حقِّ والدي تستحقُّ أن تُكتب، وألَّا شيء مثيرًا في حياته السابقة، حاول إقناعي بأن ذِكْرَ تاريخ والدي كواحد من رجال القذافي الذين آمنوا بالانقلاب وعملوا على إنجاحه لن يكون في صالح ذكراه الطيبة، خاصة بعد فبراير 2011؛ إذ يكفي أن أكتب عنه بصفته بطلًا من أبطال حرب تشاد التي سيقوا إليها بلا فَهمٍ أو قناعة تامَّيْن، أغراني بأنه سيحكي لي كل تفاصيل الحرب، منذ تعرُّفه على والدي، حين كان بَرَكة مُجنَّدًا لم يُنهِ عقده الثاني بعد، أسرهما معًا وسجنهما في أنجامينا، انضمامهما لمعسكر الحرية حيث الجناح العسكري للمعارضة، سفرهما رفقة معسكر المنشقين إلى أمريكا، وحتى لحظة قرار والدي العودة إلى ليبيا، وأسباب هذا القرار والترتيبات الأمنية التي أجراها عبر اتصالات مع رجال أمن من

أصدقائه القدامى هناك كي يأمن شرَّ الانتقام منه إثر العودة... ولكني رفضتُ عرضه، ورأيت بأن هذا تحديدًا ما يستحق الكتابة عنه، كيف تحوَّل صديق القذافي والمؤمن بفكره إلى عدوٍّ ومُعارِضٍ يستحق الاغتيال؟!

اعتبرَت أمي قراري أنانيًّا لما يُخلِّفه من أذى في مشاعرها ونفسيتها مقابل شهرة أطلبها من كتاب أول، فيما اعتبره بركّة قرارًا أنانيًّا لتدنيسي تاريخ والدي وتشويه شخصه!

وجدتُ نفسي منذ بدأت كتابة هذه السيرة بين خيارين، فإمَّا أن أكتب وأتخلَّص من جهلي بماضيَّ، ماضي والدي وسبب نشأتي بدونه، وفي المقابل أفقد مباركة أمي وبرَكة الرافِضَيْن لفكرة الكتاب رغم احترامهما رغبتي، أو أن أصرف النظر عنه تقديرًا لمشاعرهما، وفي هذه الحالة سأخسر نفسي، وسأفوِّت عليها فرصة التصالح مع التاريخ الذي لم تملك فرصة تغييره أو التدخل فيه.

أنا لا أتوقَّع أن يكون كتابي هذا ضربة قاضيةً في تاريخ الأدب، بالطبع ولا أتوقَّع حتى أن يتقبَّله القراء الليبيون؛ فهو كتاب لن يستسيغه مؤيِّدو النظام السابق، ولا حتى معارضوه، سيتَّهمونه بالركاكة والتفاهة والابتذال، وأنا مستعدٌّ تمامًا لكل النقد الذي سينال كتابي –وقد ينال من شخصي– وإن كان جارحًا أو مُهينًا؛ ففي النهاية هذا كتابي الأول، وأن يُقابَل بالرفض أفضل من تجاهُله على أيِّ حال! لم أكتب يومًا بحثًا عن ملاذٍ أهرب إليه بقدر ما أمارس الكتابة كوسيلة أهذِّب بها غضبي، أُروِّضه، وأرتِّب بها الفوضى التي تُربكني أحيانًا. أنا حين أكتب أحاول عَقْلَنَة وبلع كل ما يثير دهشتي أو حفيظتي أو حنقي؛ لهذا لا مفرَّ لي من هذا الكتاب.

قرَّرتُ أن أضع فيه كل التناقضات التي ظل والدي يتخبَّط فيها، حتى مُنِيَ بحتفه وارتاح. وأتساءل لِمَ تُصيب لعنة الحيرة والشك بعضنا دون الآخر؟ لِمَ عليَّ أن أعيد النظر فيما تربَّيتُ عليه لسنوات من عمري، وأقف موقف الطفل الذي أضاع أبويه في ازدحام سوق شعبي، المنطق يخبره بألَّا يبرح مكانه، ولكن الخوف يدفعه للانطلاق بحثًا عن أهله، رغم أن هذا تحديدًا ما قد يُعمِّق ضياعه.

لا أنكر أن طموحي وحماستي المتَّقِدَيْن حيال كتابي الأول كانا المُحرِّكَيْن الرئيسيَّيْن في انطلاقتي نحو ليبيا غير مُبالٍ برفض أمي وبرَكة... وجدِّي، ولكني لا أنكر أيضًا أن واجبي بصفتي رجل قانون أوَّلًا، وبصفتي كاتبًا ثانيًا، حتَّمَا عليَّ تقصِّي الحقيقة التي اعتبرناها بديهيَّةً. تحتِّم عليَّ معرفة اسم الشخص الذي أصدر أمر الاغتيال، الحصول على وثائق رسمية تُثبِت تَورُّط نظام القذافي، ومعرفة اسم المُنفِّذ الذي أطلق تلك الرصاصة الوحيدة بكل تلك الدقة في منتصف جبين والدي! ألا يستحق الأمر هذا العناء؟ ثم كيف سأختم سيرته بمشهد اغتيالٍ ضبابيٍّ دون إثبات؟ ألن يضعني هذا تحت طائلة المساءلة يومًا ما؟ كثيرة هي الحقائق التي توهَّمناها بديهيَّة، وحين وقفنا في مواجهتها اكتشفنا أنها لم تكن إلا كذبات كبيرة، صدَّقناها لثقتنا في قائلها: أهلينا أو المدرسة والأصدقاء، وأهالي الأصدقاء المقرَّبين، تمتصُّها تربة عقولنا الخصبة وتنمو فيها وتتخلَّل جذورها أعماقنا، حتى يصبح من الصعب علينا اجتثاثها والتصديق بأنها قابلة للنقاش والتداوُل والشك.

يُلحُّ عليَّ توماس، يستعجلني بالكتاب ليبدأ رحلة عرضه على الناشرين منذ عُدتُ لأطلانطا، كانت خاتمة الكتاب: مقتل والدي، اللغز الذي لم أتمكَّن من معرفته، ولم أستطع تجاهله. وبعد شهادة بَرَكة لم يزدد الأمر إلا تعقيدًا، فيما يجد توماس ما سجلته كافيًا جدًّا، بل ومادة ترويجية ممتازة ستغري دور النشر المهتمة بكتب الشرق الأوسط والربيع العربي!

بالنسبة لي، فكَّرتُ مليًّا في إلغاء الكتاب بالمرَّة ووأده في أدراجي، حتى وإن كان ثمن ذلك ندمًا لاحقًا، الندم على ما لم أفعل يبدو لي أحيانًا أسهل من الندم على ما فعلتُ! حين بُحتُ لأمي بهذا الخاطر أيَّدَتني بشدة، وهي لا تدري –حقًّا– لِمَ تردَّدتُ حياله، ولا يبدو لي أنها ترغب في معرفة لماذا، هي فقط ترغب في إغلاق أي نافذة تهبُّ منها رياح الماضي، خاصة ما يحمل منها رائحة والدي الذي يبدو لي أنها تعلَّقت به، ولم يبادلها بالمثل... والدي هو الرجل الليبي الأول في حياتها المُحافِظة، لم يكن أمامها خيار آخر إلا أن تحبَّه وتقبل به زوجًا لها، حتى إن لم تفهمه تمامًا.

لم أجرِّب استشارة بَرَكة؛ لأني متأكِّد من ترحيبه بالفكرة رغم أعصابه التي أحرقها وهو يحكي لي تفاصيل ما يعرفه عن والدي، محنة هزيمتهم في وادي الدوم، تيههم في الصحراء، جزعهم، وهول أَسْرِهم لدى شعب غاضب لا يعرفان عنه الكثير... اعتبر بَرَكة بَوْحَه لي حالةً علاجية ارتاح بها من عبء ذكرياته؛ فنحن حين نتشارك ذكرياتنا –لا سيَّما الموجعة منها– نتخفَّف من وطأتها على خلايا أدمغتنا، وكأننا نأخذ بعضًا ممَّا نحمله على ظهورنا ونقتسمه مع ظهور المقرَّبين الذين لا يمانعون... بالطبع لم أمانع ولن أفعل خاصَّة معه، رغم أن نيَّتي لم تكن كذلك حين عصرتُ خلاصة ذكرياته. فلأعترف: لقد ندمتُ...

يمكنني القول الآن بأني وددتُ لو ظلَّت شخصية والدي نصفَ مجهولة بالنسبة لي؛ فأنا أشبه طفلًا يكتشف فجأة أن «سوبر مان» أو باتمان» –أو أيًّا من الشخصيات البطولية التي يكبر وهو لا يراها إلا في قالب القوة والتفوُّق– هم رجال ينال منهم الضعف، لا أقصد الضعف الجسدي، بل الضعف العاطفي: الغيرة والأنانية، والكذب، والخوف... أليست كل هذه الصفات السلبية ضعفًا لا ينبغي أن نكتشفه في الشخصيات التي بقينا نُعظِّمها؟! أنحن من يصنع العظماء ومن ثمَّ يمنحهم عرشًا من القداسة يا ترى؟ هل نظلمهم بما نصبغهم به؟ ففي بعض المَنْح ظُلْمٌ وإجحاف.

على أيِّ حال، سأبدأ في إرسال ما أترجمه أولًا بأول إلى توماس كي يخفِّف من وطأة طنينه، ريثما أعيد التفكير مليًّا في فكرة الكتاب، وكيفية تلفيق نهاية ملائمة له.

حين بدأتُ تسجيل الشهادات، بدأتُ بالخالة غزالة وحسناء إثر لقائهما في تونس، ثم عمي عمر في طرابلس، ومن ثم بَرَكة حين عدتُ لأطلانطا، ولا بُدَّ من إعادة صياغتها وترتيبها بطريقة أكثر منطقية، وفق الترتيب الزمني لحياة والدي لا ترتيب التسجيل؛ لهذا سأبدأ أوَّلًا بترجمة الفصل الخاص بشهادة عمي عمر، حيث تعرَّفتُ على والدي طفلًا، وعلى جدَّتي التي لم أعرفها، وعلى ميول والدي السياسية... وآخرها ما تعلَّق بشهادة بَرَكة، رفيق والدي خلال الحرب والأَسْر والسجن، ومن ثَمَّ المعارضة؛ فهو الشاهد عن قُربٍ على كل نوبات ضعفه وقوته، ويعلم من الأمور ما جَهِلَته أمي وجدي أيضًا.

الخالة غزالة أيضًا، لديها عن أبي أسرارٌ لا يعرفها غيرها، وهي ليسَت بالجبروت الذي وصَفَتها به سارة، وكأنها متأثِّرة بنظرة أبويها: عمّي وزوجته!

رأيتُ في الخالة غزالة ضعفًا لم أميّز سببه، أبسبب فتح أبواب الماضي، أم رؤيتها وجه والدي (زوجها السابق) على صفحة وجهي، أم هو التقدُّم في العمر، أم أنه منفاها الاختياري في تونس؟ خجلتُ من الحديث عنها أمام والدتي، وهي لم تسألني، ولكني أحببتها، نعم أحببتها، ولا أعرف ألأنَّها أم أختي- الهدية حسناء، أم هو سِرُّها الذي سبق وجعل والدي يقرّر تركي وأمي لأجلها؟

التَّعرُّف على الخالة غزالة وحسناء وضعني في موقف ضبابيٍّ، لم أفهم فيه مشاعري تجاههنَّ، كنتُ رغم اتفاقي المسبق مع حسناء عبر البريد الإلكتروني قد قرَّرتُ أني لن أحبَّهنَّ، وأن رابط الدَّم الذي يربطني بحسناء وحده لن يدفعني لاحتضانها مَثَلًا كأيِّ أخوة طبيعيين حين نلتقي، كذا الحال بالنسبة للخالة غزالة التي لا يربطني بها شيء سوى كونها أمَّ أختي! ولكنهما غمرتاني فور لقائي في مطار قرطاج، بتلك اللافتة التي أمسكتها الخالة، تعرَّفَتا عليَّ قبل أن ألحظها فأقرأ اسمي عليها، ملامحي ربما التي أخبرتهما، أو قانون جذب جديد، دفع حسناء لاحتضاني قبل أن يتفوَّه كلانا بكلمة ترحيب، ربما كنتُ -بالنسبة إليهما- الماضي الذي أتى عبر كبسولة زمنية، ربَّما كانت حسناء تحتضن والدنا حين احتضنتني. لقد شعرتُ أني ليبيٌّ، وابن عليٍّ المرابط في تونس مع أختي والخالة غزالة، أكثر ممَّا كنتُ كذلك ببيت عمي في ليبيا رغم الحفاوة التي غمروني بها، والتي تجاوَزَت ما أستحقُّ، ولكن ثمَّة مشاعر انتماء تتجسَّد في الأشخاص، لا في الأماكن.

ولِمَ يبدو لي هذا غريبًا أنا الذي -حتى في أميركا، هنا في أطلانطا حيث نشأتُ وتعلَّمتُ- لم أشعر يومًا بالانتماء التام لهذا المكان؟ الانتماء كان دومًا لحضن أمي، جدي، وغرفتي، تحديدًا في كهفي القابع تحت مكتبتي، مكتبتي الجنَّة التي أتخيَّل الفردوس الأعلى نسخةً عظيمة مُكبَّرة منها، مُنذ اكتشفتُ القراءة وأنا أتخيَّل الفردوس مكتبة هائلة الضخامة، سقفها قباب منيرة، حوائطها كُتُبٌ سرمديَّة، رفوفها من الذهب والفضة واللؤلؤ، أرضيتها وسائد حريرية خضراء، دمج عقلي تلقائيًّا في سنٍّ مبكرة ما عرفته من أوصاف الجنة في القرآن بالمكتبة، رغم أنه لا وجود حَرفيٌّ لها، إلَّا أني اعتبرته أمرًا بديهيًّا، على الأقل بالنسبة لي، هذا... يعني... إن كنتُ من أهلها.

كنت دومًا أشعر بأني لغز بازل تنقصه قطعة أو اثنتان، ولا طالما أوعزت السبب إلى فقداني للأب، ولكني بعد رحلتي الفاصلة هذه لم أَعُد إلى أطلانطا نفسَ آدم الذي كُنتُه قبلها، وانتابني شعور بأني عثرتُ -مع أختي وأمها- على قطع البازل التي تنقصني، وتمنَّيتُ لو كان بمقدوري إحضارهما معي كي أنعم بمشاهدة نفسي كامل الصورة، ولكني احترمتُ رغبة الخالة غزالة -بالتالي رغبة حسناء- في عدم الخروج من تونس إلا عائدتين إلى ليبيا، في حال أُتيحَت لهما فرصة الحصول على موثق أمان بالعودة دون التعرُّض لحسناء أو اعتقالها، بسبب نشاطها الإعلامي المناهض لواحدة من الحروب التي يأبى فتيلُها إلا أن يحترق ويحرق كل ما يمرُّ به.

وهكذا عدتُ إلى أطلانطا بفوضى أكبر من تلك التي رحلتُ بها، وما يضايقني ويوجعني حقًّا بعد كل هذا: كيف سأقبض على الخطأ الذي ارتكبه والدي ليموت بهذا الشكل؟ فبعض الأخطاء يبدو كسلسلة تراكُميَّة من النقط لا نقطة واحدة قاطعة! هل ثمة مبرِّر حقيقي لقتله أصلًا؟! وكيف من الممكن أن يصدِّق أحدهم أن رجلًا آمن بقضايا متجذِّرة في قناعاته، انضمَّ إلى المعسكر المقابل لما آمن به بين يوم وليلة؟ وكيف يمكن أن تكون نهاية رجل حياته مليئة بكل هذا الزخم، على يد مجهول؟

أنبياء بلا ثورة

«توماس العزيز

يؤسفني عدم تمكُّني من الرد على اتصالاتك، وأرجوك أن تتفهَّم حساسية موقفي مع أمي مُذ عُدت، لقد ازداد تعقيدًا بعد وفاة جدي، وبدا كأنني السبب في موته! لذا من غير اللائق كما أعتقد الآن أن تسمعني أمي أحكي معكَ تفاصيل الكتاب وعملية سير كتابته؛ فهي –وبغضِّ النظر عن وضعها النفسي المضطرب مؤخرًا– لا ترغب في سماع شيء عنه، وأنا أيضًا يا صديقي، لست بمزاج يسمح لي بمقابلتك وجهًا لوجه، أظنُّ أنني سأنهار إن تفوَّهتُ بكل ما يجري معي.

سأرسل لك تباعًا فصولًا من الكتاب، بعد ترجمتها التي لم أنتهِ منها بعد، كما أخبرتك سابقًا، لم أنتَهِ إلَّا من تفريغ الشهادات باللغة العربية التي تحدَّث بها أصحابها، وحين نصل إلى نهايته نُقرِّر: هل يَصلح للنشر أم لا؟ ليس من الناحية الفنية، ولكن من نواحٍ أخرى يمكنك استنتاجها بنفسك. سأواصل إرسال الفصول عبر البريد الإلكتروني، وبادِلني بالمثل؛ فأنا أتجنَّب قدر الإمكان إلحاق المزيد من الأذى النفسي بأمي... وبنفسي أيضًا.

لقد عدتُ يا صديقي من ليبيا بذاكرة موجَعة، وبقلب مُحطَّم.

صلِّ لأجلي... لأجل آدم المرابط الذي اكتشف للتوِّ حماقة ما أتى به إلى هذا العالم».

لماذا تُزعجني فكرة إلغاء الكتاب إلى هذا الحدِّ؟ ألأنَّ في الأمر استهانة بوقتي وبالوقت الذي منحني إياه هشام والجهد الذي بذله كي يعثر لي على وساطات ومعارف تعينني في البحث عن حقيقة مقتل والدي؟

عمي عُمر سيستحسن الفكرة، مثله مثل بَرَكة وأمي، ولأسباب مختلفة بالطبع، فعمي عُمر –على نقيض بَرَكة– يرى في انضمام والدي للمعارضة بأميركا وصمةَ عارٍ شوَّهَت تاريخ نضاله ضد الرجعية والإمبريالية العالمية! لم يكن من السَّهل عليَّ مقابلة عمِّي لأول مرة في هذا العمر، بدون أي توقُّعات مسبقة لشخصه، إنه أمر صعب بالنسبة لرجل لم يلتقِ والده. وما بذله ابنه هشام لمساعدتي سيَهُون عليه بكل تأكيد ولن يلقي له بالًا، ما دام الماضي باقيًا طيَّ الكتمان.

ازدادت صعوبة الموقف أمام مبادئ عمي وأفكاره في العموم، لا السياسية فحسب، بل الاجتماعية والدينية أيضًا، وهذا ما بدا لي جليًّا مثلًا في القيود التي فرضها –إلى حدٍّ ما– على سارة وعلى أخواتها المسكينات اللاتي حرمتهنَّ الصُّدفة من التَّمتُّع بكثير من الامتيازات، فالعفَّة والشرف لديه ارتبطا ببقائهنَّ في البيت مُسيَّرات لا مُخيَّرات، بتزويجهنَّ أو تكريس ما بقي من أعمارهن في طاعة الأبوين، وطاعة الأقارب والمعارف وخدمتهم في مناسباتهم وتجنُّب المشاكل مع الجيران والبر بكل مَن ذكروا!

أمَّا سارة فحظها أخرجها من هذه الحِسبة، لهشام دور في تحديد مصيرها وهذا ما لاحظته بحكم العِشرة الرائعة التي حظيت بها معه، هي محظوظة لأنها أصغر أخواته، جاءت في وقت كان لهشام فيه قدرة على إقناع الأب بحقوق هاته الفتيات، جاءت في وقتٍ استُنفِدَت فيه قواه وصبره على المناكفة وتحكيم الرأي، وفي هذا لي نصيب من حظِّها؛ لولا ذلك ما تسنَّى لي التعرُّف إليها عن قُرب، ولكانت صورتها في مخيّلتي كصور شقيقاتها اللاتي لم أسمع أصواتهن إلا ناطقات بالترحيب، ولم أحفظ من هيئاتهن إلا عباءات سوداء وإيشاربات طويلة سادة، نسيت حتى ألوانها، أكانت بيضاء أم بُنِّيَّة!

ورغم ما حملته لها من مشاعر نبيلة، رغم تحفُّظي لديهم خلال فترة مبيتي ببيت عمي نزولًا عند إلحاحهم، ورغم محادثاتنا الليلية عبر مواقع التواصل الاجتماعي ولم يكن يفصلنا إلا حائط غرفة ضيافتي وغرفتها، المحادثات المغرية الدافئة المتخمة بالوعود، المحادثات اللعوب التي بدأتها هي! رغم كل هذا تُصرُّ سارة على أن تربيتي مهما بلَغَت من الحُسن لن تقيني شرَّ المجتمع الذي نشأتُ فيه! ولم تُصدق أني رغم كل العلاقات العابرة التي مررتُ بها لم أضاجع امرأة يومًا! لا، ولم ألمس حتى امرأة بقصد شهوانيّ... سارة... هذه الفتاة المُحافظة والجريئة في آنٍ معًا، أغرقَتني في بحرٍ من مشاعر الحب والحيرة، والدفء واللوعة والشوق والندم والأسى والشك مجتمعة!

رأيتُ نهودًا عارية أكثر تكوُّرًا من نهديها المختبئين دائمًا تحت طبقات من الملابس، تخفيهما حياءً منهما أم من العيون الباحثة عنهما على الدوام، رأيتُ أفخاذًا عارية، أكثر استدارة وامتلاءً من فخذيها النحيلتين، اللتيْن وشت بهما عباءتها السوداء الحريرية ذات أمسية حين تجرَّأت وسمحت لنفسها أن تأتينا بمفرش الطعام تفرشه ببطء وأناقة أمامنا مناولةً فوطةً لثلاثتنا (أنا وأخيها وأبيها)، ثم واصَلَت إحضار سفرة العصائر وسلال الخبز الساخن، ومن ثم سفرة العشاء المعدنية المستديرة التي أُراهِن أنها كانت أثقلَ من قدرة عودها النحيل على حملها، متجاهِلةً سؤال هشام عن سبب عدم مناداته للقيام بالمَهمَّة!

لماذا انجذبتُ تحديدًا لملامحها العاديَّة: عينيها الضيقتين حين تختفيان في ابتسامة، وشفتيها الرقيقتين ومبسمها المنمنم كفمٍ تعلَّم التَّبسُّم للتوِّ؟! هل أحببتها من أول نظرة؟ لا بالطبع! ولكنني أحبَبتُها مع أول صوتٍ صدر عنها مُرحِّبةً مُشاكسةً. ثمَّة غبار سحري ينتشر منطلقًا من بين شفتيها حين تنطق، غبار يمنح تفاصيل وجهها العاديَّة جاذبيَّةً، أهي رصانة صوتها الممزوجة بنعومته، أم طريقتها في تحريك حاجبيها الرقيقين وكأنهما تُرجمان مشاعرها حيال كل كلمة تنطقها؟!

لم يكن ثمَّة ما يمنعني من التمادي في مشاعري تجاهها إلا شعور الذنب من كرم هشام معي ولطفه البالغ، هشام بالنسبة لي ليس مجرَّدَ ابن عمٍّ تعرَّفتُ عليه في رحلتي إلى ليبيا، بل أخ وصديق، هديَّة لم أتوقَّع أن تكون بانتظاري، وما قالته حسناء في حقِّه لم يكن شيئًا أمام ما رأيته رأيَ العين منه، لقد كان نبيلًا وشهمًا وكريمًا إلى الحدِّ الذي جعله يتعامل بدماثة مع كثير من الشباب غريبي الأطوار سيِّئي الطباع الذين قابلناهم خلال مشاويرنا بين الأجهزة الأمنية التي لم أحفظ مُسمَّياتها لكثرتها، باحثين فيها عن خيط دليل واحد يرشدنا لقاتل والدي، أو مَن أصدر الأمر بقتله.

ما زلتُ لا أصدّق كيف لأجهزة أمنية رسمية –كما تدَّعي– أن تسمح بجلوس شاب رثِّ الهيئة، يرتدي تي شيرتًا بائدًا صيفًا وشتاءً، وبنطلونًا عسكريًّا –للغرابة– مع نعل من النوع المخصَّص للشواطئ؟! العجيب في الأمر أن هذه الهيئة قابلَتني في غير بوَّابة ومركز، حتى سألت هشام مرة إن كان زيًّا رسميًّا، لم يجبني هشام ولكني فهمت من هستيريا الضحك التي نالت منه حتى دمعَت عيناه وفقد قُدرتَه على التنفُّس. ليس هذا فقط ما أثار استغرابي، فأسلوب حديثهم أيضًا لم يكن ليروقني، في البداية ظننتُ أن الأمر متعلِّق بي وحدي، ظننتُ أن هذه هي اللهجة المتداوَلة في الشارع، ولكن هشام أكَّد لي أن الأمر ليس كذلك، وبأنهم يلحنون ويطوِّلون ويبطئون في بعض الكلمات ويصيحون أحيانًا دونما مبرِّر إمَّا لتعاطيهم شيئًا ما، أو لإيهام الآتي إليهم بالقوة أو اللا مبالاة، يحاولون جاهدين منح أنفسهم هيبةً متعطِّشين لها، يكافحون لكسب احترام وتعظيم لا يؤمنون هم أنفسهم باستحقاقهم له. معظمهم كان واضحًا عليه أنه في مطلع عشرينياته إن لم يكن أصغر.

ولولا بعض الأمسيات في مقاهي «النارجيلة» التي تفيض بالشباب اليائس، لولا تلك الأمسيات رفقة هشام، التي تعرَّفتُ فيها على وليد ومعتزّ وأكرم– أصحابه المقرَّبين، لولا أحاديثهم التي تنمُّ عن درجة عالية من الألم والوعي والشعور بالخذلان والطموح الذي لا يحدُّه سقف والكبرياء الذي لا يعترف بالاستسلام؛ أقول: لولا كل هذا ربما لارتسَمَت في ذهني صورة غير مُشرِّفة عن عامة الشباب في ليبيا، ولاعتبرتُ هشام شذوذًا جميلًا عن القاعدة البشعة. كنت أجلس عاجزًا مبهوتًا من قدرتهم العجيبة في القرقرة والتَّنذُّر من حكايات وليد الذي ينتظر الصيفَ كلَّما حلَّ الشتاء مُتطلِّعًا للحظة «الحرق»، أي الهرب عبر قوارب الموت إلى إيطاليا، جنَّتهم السَّرابية، وفي كل مرة، حين يأتي الصيف يقع في قصة حُبٍّ جديدة تجعل سراب الجنة ليبيًّا من جديد، فينسى مأساة سجنه مرة ظُلمًا في سجون الميليشيات لخلاف نشب بينه وبين أحدهم، ينسى أنه لا يملك ما يبني به بيتًا وأسرة؛ فعمله في دُكَّان أكرم لا يكفيه ليدَّخر منه، ثم يتذكَّر كل هذا نهاية الصيف؛ فينتهي الحب، وتعود أحلام الحرق، وهكذا...

أمَّا معتزّ، فيسخر من نفسه الطَّموحة التي دفعته لإحراق أعصابه دراسةً كي يتخرَّج من الهندسة النفطية بتقدير امتياز يؤهِّله لمواصلة الماجستير في أمريكا على حساب الدولة الليبية، يقول بأن برامج الإيفاد باتت أصعبَ من ذي قبل، يواصل عمله في الكلية بصفته معيدًا في القسم براتب متقطِّع لا يتمكَّن من الحصول عليه نقدًا، وهو علاوة على ذلك لا يمكنه الادِّخار منه، يدرس الماجستير في نفس الكلية، ويتطلَّع لإنهائه بنفس درجة تفوُّقه بالبكالوريوس؛ علَّه يتحصل على الإيفاد للدكتوراه هذه المرة، يقولها بشكٍّ يغالب يقينه في تحقُّق ما يطمح له، فأموال الدولة لم تعُد تكفي للطلبة المبتعثين ولا للحالات العلاجية، أموال الدولة تكفي فقط للتسليح! وبين كل طموحاته هذه تبدو له فكرة الزواج وبناء الأسرة محضَ تفاهات، وسذاجة، وترفٍ لا ينبغي لأمثالهم أن يطمحوا إليه...

أمَّا أكرم –وهو أهونهم بؤسًا، على الأقل بالنسبة لي– فهو شابٌّ عصاميٌّ، اختصر طريق الدراسة بدخوله معهدًا إداريًّا متوسطًا بعد الإعدادية؛ فقد كان مشغولًا بتجارة بدأها بطاولة صغيرة في سوق أبي سليم الشعبي، يبيع عليها العطور والإكسسوارات الرخيصة، وهو الآن صاحب سلسلة محلات تحمل ماركة معروفة في كثير من المدن الليبية، يبيع مواد وأدوات

الزينة بالجُملة، يوفر فرص عمل لشباب لم يجد عملًا يناسب شهاداتهم الجامعية كوليد... أكرم يعاني من حالة خوف قهرية مُزمنة، وحالات هلع رهيبة كلما تأخَّر أحد والديه أو إخوته في العودة للبيت، يحمل في سيارته مسدَّسًا، وفي حزام خاصرته واحدًا آخر، يعرف أنه وكل أسرته هدفٌ لعملية اختطاف وحرابة، وابتزاز، باتت خلايا المجرمين تتكاثر في العاصمة وكثير من ضواحيها، ولم تعُد أخبارهم تُشكِّل أي مفاجئة، لا الصحف تتحدث عن حالات الخطف والابتزاز والتي غالبًا ما تنتهي بمصرع المخطوف، ولا الإعلام المشغول بالتناحر والقتال بالكلمة موازاة مع الرصاصة... تعرَّض أكرم مرة لمحاولة اختطاف نسي فيها المجرمون إغلاق الأبواب، فعلها؛ فتح الباب وقفز من السيارة، يحكي لي بأنه لا يعرف كيف سمح له وزنه وشدة سقوطه من السيارة المسرعة من النهوض فورًا والجري راكضًا بين أدغال مزارع «طريق المطار» مختبئًا من العصابة التي لم تُبالِ بالبحث عنه؛ فسيارته بدت غنيمةً كافية... يُفكِّر جدِّيًّا في الهجرة، ولكنه يظنُّ بأن البداية من الصِّفر في بلد آخر وإن كان برأس مال ضخم من أملاكه هنا وثروته لن تكون مضمونة، رغم أنه خسر كثيرًا نتيجة اندلاع الحرائق في بعض مستودعاته في كل مرَّة تندلع فيها حرب، ويبدو لي أن ثمة أسبابًا أخرى، فتعلُّق كل هؤلاء الشباب بأهاليهم وبالبلد الذي نشؤوا فيه أكبر ممَّا يدركونه، ما زالت ليبيا تمثِّل لهم –رغم كل ما يجري فيها– دائرةَ أمانٍ ودفء لن يجدوه خارج حدودها.

وفي المكاتب التي زرناها رأينا القيافة التامَّة، والأدب الجمَّ، وما زادني هذا إلا استغرابًا مقارنة بما قابلنا على بواباتهم، ولكن لا يمكنني تجاهُل مشاعر الرهبة والخوف التي انتابَتني من بضعة أسئلة وُجِّهَت لي، كان عليَّ في كل مرة شرح القصَّة بالكامل، قصَّة والدي: أَسْرِه وانضمامه للمعارضة ومن ثمَّ اغتياله، ظنَنتُ في البداية أن ذِكْري نُقطَة انضمامه للمعارضة الليبية سيُسهِّل عليَّ الإجراءات ويفتح في وجهي الأبواب الموصدة، ولكن ما حدث كان عكس ذلك تمامًا. ألا يتَّفق هؤلاء مع أولئك في عدائهم للقذافي؟ ألم يكونوا صفًّا واحدًا في عام 2011؟ لماذا صارت جنسيتي وجنسية والدي المزدوجة مصدرَ قلقٍ!

خُيِّل إليَّ أحيانًا كثيرة بأني أتيت في الزمن الخطأ، وبأني زرتُ ليبيا الجماهيرية، وبأن كل ما رأيناه عبر التلفزيون لَمَّا يَكُن إلا تمثيلية أمام العالم. هل انتهى نظام الحكم العسكري حقًّا في ليبيا؟ كان هشام يقابل أسئلتي غالبًا بالصَّمت، ولم أفهم حتى اليوم توَجُّهه، أهو مع ثورة فبراير أم ضدها؟ فهو لا يتَّفق مع أبيه، ولكنه يمقت الوجوه الموجودة الآن، والتي من بينها من ترأَّسوا المشهد السياسي في 2011، وما يُحيِّرني بحقٍّ: لماذا يظنُّ عمي عمر (وسارة أيضًا كما اتَّضح لاحقًا) بأني وغيري ممَّن نملك الجنسية الأمريكية ولا بُدَّ، ضالعون فيما آلت إليه الأمور عندهم؟

كانت تسيطر عليَّ مشاعر الرَّهبة والقلق تجاه عمِّي عمر في جلساتنا الأولى، تلاشت هذه المشاعر تدريجيًّا من ناحيتي، تمامًا مثل موقف عمي المسبق مني: قلقه حيال أسباب مجيئي إلى ليبيا، وعدم اقتناعه بدايةً بأن كل هذا العناء فقط لأجل كتاب، لا لأجل إرث اقتُسِمَ وظهر له ورَثةٌ بعد فوات الأوان!

ولا ألومه، إذ بعد اطِّلاعي عن قرب على الأحوال هناك، ستبدو كل هذه المشقة ومصاريف السفر التي بذلتُها لأجل كتابٍ ترفًا وفائضًا من أوقات الفراغ التي رأى عمي بأني لا أجد فيما أضيّعها! وأكاد أجزم أنه في حال صدور كتابي هذا، فإن عمي سيكون آخرَ قُرَّائه، هذا إن عَلِمَ أصلًا بصدوره. أعلم أن الكتب بالنسبة لكثير من جيله والجيل الذي تلاه هي صنعة من لا صنعة له، صنعة النُّخب المولودين بملاعق ذهب في أفواههم، أو أولئك الذين ورثوا «الثقافة» كمادة مُسبِّبة للإدمان، ومصدر للبرستيج لا بُدَّ وأن يستمر في سلالة العائلة، وكأن الكتب مادة ممنوع تعاطيها بين عامَّة الشعب، مادة مصنوعة من الحلم للواهمين، مُحرَّمة على الكادحين... ولعل هذا الاعتقاد واحد من الأعراض الجانبية التي تظهر على الشعوب الفقيرة والمتخمة في آنٍ معًا، حيث بلاد التناقضات والتبدُّلات اللا نهائية، الناس هناك بحاجة إلى خبز ودواء، ووقود ومصدر دخل ثابت ومستقرٍّ، ربما ليسوا بحاجة إلى ما نُسمِّيه الإبداع، والثقافة بالنسبة لهم ببغائية، والكتابة صنعة العاطلين.

استغرقني الأمر كلَّ الساعات التي قضيتها مع عمي لأُدرِك هذا، الساعات التي مضى نصفها في استجواب كنت أنا الخاضع له، لقد عامَلَني عمّي كما يعامل مُحقِّقُ الشرطة شخصًا متَّهمًا، وبدا لي أني مذنب بذنب أجهله حتى تثبت براءتي، وساعات أخرى كثيرة مضت لكسر ثلج الرسميَّة والصرامة التي تعمَّد رسمها كهالة حوله؛ ربما لتحذيري من الخوض في نقاشات عقيمة، وتبريرات جاهزة لاتهامات لم أطلقها في حقِّه ولا في حق والدي. يجهل عمي عُمر أني غير مبالٍ بخوض أي نقاش بقدر اهتمامي بنقل ما جرى كما هو تمامًا، دون تحوير، دون تزيين أو تشويه؛ إذ إن كلًّا منَّا يملك وجهًا من أوجه الحقيقة، والحقيقة مادة زئبقية، لن نلمسها، أعتقد أن الذين لمسوها رحلوا فورًا من عالمنا متسمِّمين بها. ربما لا يُدرك عمّي بأني أرى شهادته بالذات وثيقة لا ينبغي تجاهلها، سواءً بالإنكار أو التبرير، فهو يُمثل فئة من الشعب الليبي لا تجد في هذا الوقت تحديدًا مَن يستمع إليها بموضوعية تامة وبتقبُّل عميق لدوافعها في اتخاذ كثير من المواقف، فئة تعتقد جازمةً بأن أفكارها الوطنية وحدها تجسِّد الانتماء الحقيقي للوطن.

عُمر المرابط: عليٌّ، الـميِّت الذي لفظه الموت

الموت الذي كاد أن ينتزعه من أمِّنا هو تحديدًا ما جعله ابنها الأثير، رغم أنه ليس بِكرَها، وليس أصغر أبنائها، ولكنَّ مرضًا ألقاه على فِراشه دون وعي لخمسة أيام متواصلة، جعلنا نُسلِّم أنَّ شقيقي الصغير عليًّا يحتضر، كنت أراه يزفر دون شهيقٍ، وأعتقد في نفسي –وقد كنتُ حينها لا أتجاوز الثامنة– بأن هذه روح أخي المولود منذ بضعة أشهر تخرج تدريجيًّا، يخرج معها حليبُ ثدي أمِّي ودفؤه، زفر في إحدى المرات زفرات قوية ساخنة ما كان ينبغي لها أن تخرج من جوف ذاك الجسد الهزيل.

هذا لأنه وُلِدَ في 1944، وموت الصِّغار كان شائعًا إبان الأربعينيات وما قبلها، وسنوات عديدة أخرى بعدها؛ بسبب الفقر والجهل والبلاد المسحولة تحت نعال عبودية الاحتلال الإيطالي، ثم عبودية الانتداب الانجليزي؛ لهذا لا أذكر أن مرضه كان ذا اسم، ولا تذكره أمي –بطبيعة الحال–، أمي التي لم تيأس من حياته رغم فقدانها ثلاثة أطفال بيني وبينه، اثنان منهم ماتا حديثَيْ الولادة، وواحدٌ فَطَرَ قلبها –حتى ما عاد أبي يظنُّ أنها ستحبل بعده– توفِّي بعد إنهائه عامه الثالث.

في اليوم الثالث لمرضه توافَدَت علينا أسراب النساء من الجوار، وجوار الجوار، هكذا جَرَت العادة، وكأنما في استعداد وتأهُّب لمأتم رابع من مآتم أولاد المرابط، ولكن أمي هذه المرة أَبَت استقبالهنَّ، اللهم إلَّا المُقرَّبات، كانت تخبر من تأتيها بأن عليًّا بخيرٍ وحاله في تحسُّن، وهي لا تظهره خوفًا من الحسد، بينما كان عليٌّ في تلك الأثناء يذوب. إحداهنَّ –وهي أقربهنَّ صُحبةً لأمِّي– سألتها إن كانت قد زارت قبر جدِّنا المرابط، وقد بدا الأمر بديهيًّا؛ لهذا ربما لم تجرؤ على سؤالها إيَّاه سابقًا، وكانت المفاجأة العظيمة حين نفت أمي، «هو إذًا غَضَبُ سيِّدي!»، عارَكَت أُمِّي التي لم يكن ثمة مَن ينصحها أو يوجِّهها؛ فقد تزوَّجَت صغيرةً لَمَّا تبلغ السادسة عشرة بعد، وهي يتيمة الأبوين، نشأت في كنف جدِّها لوالدتها، وهو جدُّ والدي أيضًا؛ لهذا كان تزويجها من ابن خالها تحصيلَ حاصل.

لم تأخذني أمي معها لقبر المرابط ولا الأولياء الصالحين الآخرين الذين ازدادوا وتكاثَروا بتكاثُر الاقتراحات التي انهالت عليها من كل اتجاه من المُحبِّين والفضوليين والمتبجِّحين بأوليائهم على حدٍّ سواء، أخَذَت معها عليًّا في اليوم الرابع، أبقته في اليوم الخامس معي أُعَسعِس عليه بينما خاطت الطريق بين القبور وبيتنا، وكأنها أقسمت على زيارتهم جميعًا قبل أن يبدأ بالتعافي في اليومين التاليين، أسبوعًا أسمته لاحقًا بأسبوع الصالحين؛ تبرُّكًا بهذه الذِّكرى، كانت تأتيه إثر كل زيارة بتربة من قبورهم، تنثرها حول عليٍّ وعلى ثيابه، تقرأ بعضًا ممَّا تحفظ من آيات الله، يسايرها والدي حين يعود من الحقل وما زال لديه من العَرَق لِترٌ آخر يبذله وهو يهزُّ به ويدور جيئةً وذهابًا في كل ركن من أركان بيتنا، كان يحفظ من القرآن أكثر ممَّا تحفظ أمِّي بالطبع؛ بسبب التحاقه بالكُتَّاب حين كان طفلًا، يقرأ وينفث ويمسح على رأس عليٍّ وصدره بكفَّيْه اللَّتَيْن اختلط فيهما عرق الحقل بتُربته، بالخطوط التي خلَّفتها ألواح المسحة والمجرفة، يقبِّله مُتحسِّسًا حرارته، يحوقل ويُحَسْبِن، يلفُّه بقميصه

الأبيض المصفر كدحًا، ثم يأمر أمي: «محبوبة... لا مزيد من تربة القبور»، بعد تأنيب شيخ القرية له إثر وصول الأخبار في اليوم الخامس، لم توجد في بيوتنا لا تلفزيونات ولا راديوات، ولكن ألسنة النِّساء وحكاويهنَّ لأزواجهن ليلًا في المهاجع كانت مصدرَ الأخبار الرئيسي لدبيب النَّمل في القرية.

بمعجزة، أصرَّت أمي أنها بَرَكة الصالحين، وأصرَّ والدي بأنها بركة دعاء الشيخ وتوجيهه وتوعيته لهما، بمعجزة –ولا يمكنني يا بُنَيَّ اعتبارَها شيئًا آخر– استيقظ عليٌّ صباح اليوم السابع يناغي أبويه، وتفجَّر ثديا أمِّي نهر حليب وكأنما ابتهاجًا بعودة الشفتين اللتين كانتا منذ يومٍ سابقٍ تمتصَّان بوهن ولا يبلغ الحليب مُستقرَّه في المعدة حتى يُلفظ كالنافورة بينهما، وها هما تعودان لامتصاص رحيق حبِّ أمي بنهم وشراهة المحروم من الشبع لحَوْل كامل! كيف عاش هذه المدَّة طفلًا لم يبلغ عامه الأول بعدُ؟! لهذا لا يمكنني تسمية ما حدث بغير المعجزة. غاب أبي عن الحقل يومها، وامتلأ بيتنا بالعزائم والولائم لثلاثة أيام متتالية، كانت ولادةً جديدةً ذُبح فيها كبشان آخران تمامًا كما حصل بعد ولادته الأولى، وحتى رحيل عليٍّ الأخير عنَّا إلى تشاد، ظلَّت أُمِّي تنظر إليه كميِّتٍ غالٍ اشتاقته فعاد به الموت إليها إشفاقًا واستسلامًا لإرادة لم تفلح مع كل غالٍ فقدته لاحقًا، لم تفلح مع أبي حين غاب في غياهب المرض قبل كهولته، أفلَحَت فقط مع عليٍّ ثلاث مرات قبل تلك الرابعة في تشاد، والتي ظنَنَّاها كانت القاضية، مرة بعد ولادته، ومرة في حرب العبور التي شارك فيها بعض الجيش الليبي جنبًا إلى جنب مع المصري، ومرَّة بعد حرب تشاد الأولى التي فُقِدَ فيها ثم ظهر حيًّا بعد رحلة قضاها في الصحراء متتبِّعًا النجوم ومُستَعينًا ببعض التشاديِّين الذين كانوا يقيمون على الحدود الجنوبية للبلاد وعثوره بالصدفة على دورية ليبية. وكأن الموت يصبح كريمًا مع فردٍ واحد من الأسرة، كوبون عودة لشخص واحد، لا يحقُّ لك الطمع بأكثر من عودة ميِّتٍ واحد.

لم يزُر المرضُ عليًّا بعدها إلا عابِرَ سبيل، على خلافي وأخي الصغير الذي جاء بعده، ولم أرَ أمي تفعل في مرضنا ما فعلته مع عليٍّ، اسمه كان أوَّلَ ما تنطق بعد استيقاظها فجرًا، وكان آخر ما تنطق قبل نومها، وكل ما تنطق به بينهما، أين عليٌّ؟ هل أفطر؟ هل تغدَّى؟ هل تعشَّى؟ هل أُرهق في الحقل؟ هل ضربه شيخ الكُتَّاب؟ تتوسَّل أبي أن يُخفِّف علينا وتُشدِّد على عليٍّ، «حتفسديه يا محبوبة!» هكذا يزجرها أبي، ولكنها لا تبالي بزجره وغضبه ونهيه وأمره أمام حبِّها لعليٍّ، لم يضع لها حدًّا لانجرافها إلا دخوله المدرسة الثانوية في طرابلس ومن ثمَّ الكلية العسكرية.

لسبب ما لم يَعُد بإمكاني تذكُّره، تشاجرنا مرَّةً أنا وأخي هذا، حنقي الشديد عليه رغم السنوات الثماني التي تفصلنا –وقد كان في الخامسة على ما أذكر حينها– دفعني للتَّفوُّه بكلمتين، دفعتُ ثمنهما غاليًا لعدة أسابيع لاحقة. كنتُ عائدًا به من الكُتَّاب، اقترف أمرًا ما فزجرته ولم يبالِ، لم تكن لي سُلطة عليه، وهذا سبب كافٍ لإثارة غيظي، فلا يُسمح لي بلمسه وفق قوانين أمي، ولا حتى بشتمه إلا همسًا، وشايةٌ منه كانت كفيلةً بحرماني من وجبة العشاء، أو من «طاسة شاهي العالة» إلى جوار أبي، كان رغم حداثة سِنِّه داهيةً يعلم امتيازاته وحقوقه الممنوحة له زورًا وبهتانًا، ولا يعرف له واجبات غير المبيت مُبكِّرًا في مخدع أمه. لشدَّة غيظي دعوت عليه: «إن شاء الله تموت!»، خرَجَت بحذرٍ بين أسناني المطبقة خوفًا من أن تحملها الريح إلى أمي في بيتنا الصندوقيِّ المثقوب حُفرًا سميناها نوافذَ، لم يكن يبعد بابه إلا خطوات معدودة، هكذا

ظنَنتُ، ولكنها كانت تقف ورائي، تحت عريشة عنب موَّهَت ظلالُها ظلَّ أمي فلم ألحظها، كانت قد أنهَت لتوِّها نشر الغسيل...

«إن شاء الله اللي يكرهوه!».

لم تبدُ لها إجابتها هذه شافية، فأردَفَت لا مبالية برد فعلي: «إن شاء الله فيك!».

وقاطَعَتني لأيام، وربما أسابيع، بدت لي الخصومة طويلة، لم تُجْدِ معها توسُّلاتي وتبريراتي، حتى بعد أن غفر لي عليٌّ، حتى بعد محاولاتي ملاطفته أمامها وملاعبته وتدليله أكثر ممَّا كان مُدلَّلًا أصلًا، لم تغفر... وكنتُ كلَّما أرسلتُ إليها عليًّا يطلب لي الشفاعة نسي، وانشغل في طريقه إليها؛ إمَّا تجذبه رائحة سخونة خبز التنُّور الخارج للتوِّ من فرنه، أو عنقود عنب كان ينتظر تلك اللحظة لينضج وتسقط إحدى حبَّاته في طريق عليٍّ، فوق رأسه تمامًا.

في النهاية، تدخَّلَت رحمة الله بصورة عجائبية، واستطاع أبي –وكانت هذه آخر مرة استطاع فيها فِعلَ أمرٍ مشابه– أن ينتزع منها الغفران، سامحَتني وكنتُ أتوقَّع منها ما يشبه الاعتذار في المقابل بالدعاء الذي ردَّت به عليَّ، انتظَرتُ منها على الأقل تلميحًا بأنها لم تَعنِ ما لفظَت مثلما لم أَعنِ أنا ما تلفَّظتُ به في حق أخي! ولكنها لم تفعل؛ ممَّا شوَّه غفرانها ونزع عنه أهميته في قلبي حينها، فنحن في مرحلة ما من شبابنا المُبكِّر نميل إلى معاملة أهالينا كأندادٍ لنا، ونتطلَّع لأن يعاملونا هم أيضًا كذلك، فيشرحون لنا زلَّاتهم، ويطلبون منَّا السماح!

تجاوَزتُ الموضوع بعد فترة لم أُحصِها بـ «الله يسامحها»، وما زلتُ أقولها. وحين أنظر الآن للعمر الذي عِشتُه، وأقارنه بما عاشه شقيقي عليٌّ تنتابني مشاعر متناقضة، أقول: لربَّما كان دعائي على أخي من وسط قلبي لا من ورائه فاستُجيب لي، فأهلع! أو ربما كان هذا جبرًا من الله لي وتأكيدًا على أن دعاء أمي لم يكن إلا درسًا قاسيًا لم تَعنِه، فأرضى!

امتلكنا أرضًا ملَّكَتها لنا الدولة مطلع الستينيات، بعد أن عمل والدي في غيرها حرثًا ورعاية لمدة تجاوَزَت العَقدَيْن، كان يعمل فيها لصالح أسرة إيطالية تابعة للجالية التي جاءتنا عبر البحر لتستوطن أرضنا قبل ذلك بثلاثة عقود، لم يعرف أبي إلا الذُّلَّ مقابل فُتاتٍ من الأجر كان كافيًا لنا في مرحلة ما، فقط لأن أمعاءنا وبطوننا اتَّخَذَت بسبب الجوع شكلًا مُقعَّرًا فُرِض عليها بحُكم العادة البشرية التي ندعوها بالتأقلم، غير أن القهر لا ينكمش كما تفعل البطون، بل يزداد اتِّساعًا حتى لا يترك في جوفنا مُتَّسعًا لمشاعر أخرى، اللهم إلا مشاعر التشفِّي والنصر التي انتابتنا جميعًا لاحقًا حين طُردوا ووُزِّعَت الأراضي التي فلحها الليبيون عليهم، وبصفتنا من المقيمين في الدواخل فإن الكهرباء وإمدادات المياه لم نعرفها إلا في عهد الجمهورية التي أصبحت لاحقًا «جماهيرية»، كُنَّا سمعنا في آخر أيام الحكم الملكي بأن ثمة مشاريع لتحسين الأراضي الزراعية والاستثمار فيها، خاصَّةً بعد طفرة البترول التي أذهَبَت عقول الناس وأنستهم حِرفةً كانت من أهم الحِرَف التي يتقنها الليبي في الساحل، إلا أن الحاشية الملكية وفسادها الذي فاحت عفونته في آخر عَقدٍ من حكمه وحالة الاضطهاد والنكاية والمحسوبية– حالوا ربما بين تنفيذ تلك المشاريع؛ فلم نرها تتحقَّق إلَّا في العهد الذي تلاه.

وأنت ترى –ولا بُدَّ– الآن أن لكلٍّ مِنَّا قصة مع النظام في ذلك الزمان، فقصة جَدِّكَ لأُمِّكَ تختلف عن قصتنا، نحن قوم أثِمنا بفقرنا، ببساطتنا وبالصُّدفة التي جعلتنا نولد فلَّاحين من الطبقة الكادحة، ودفعنا ثمن هذا الإثم الذي لا نعرف مَن مِن بين أجدادنا الذي اقترفه على خلاف عائلة أمِّكَ التي ورِثَت الجاه والمال. حُرِمتُ من مقاعد الدراسة في العمر المناسب ودخلتُ الابتدائية متأخرًا بثماني سنوات، مع عليٍّ، لم يكن في الأمر إحراجٌ؛ فقد كانت الأُمِّيَّة هي السمة الغالبة على دواخل المدن الكُبرى، درسنا في غرفة بقريتنا، بلا باب يوصد في وجه الكلاب، ولا نوافذ تُغلق في وجه القطط، سمَّيناها مدرسة ابتدائية، انتهيتُ منها بعد تجاوُزي العشرين! لهذا اكتفيت بها وواصَلتُ عملي فلَّاحًا مع أبي؛ ولهذا استغرقني الأمر زمنًا كي أصبح متأهِّبًا للزواج وقادرًا عليه مادِّيًّا؛ إذ إنني لم أملك الحظ الذي امتلكه عليٌّ، والذي دفع أمي للتفكير في تزويجه من بيننا وكأنها لم تَلِد ولدًا غيره، وباعت لأجله آخر سوار ذهب كانت تمتلكه، وهو آخر هدية أهداها إيَّاها والدي، من بين هداياه القليلة أصلًا.

واصل عليٌّ ومن بعده أصغر إخوتي دراسته الإعدادية وانتقل إلى طرابلس لدراسة الثانوية، ومنها قرَّر عليٌّ الالتحاقَ بالجيش في نواته الأولى بروح معنوية عالية، ونفس تطمح للعلوِّ الذي لا يحدُّه سقف.

افتخرنا به وسط جيراننا في القرية، كُنَّا أوَّلَ مَن امتلك راديو أحضره لنا عليٌّ من طرابلس، كنا نسمع أخبارًا عن مشاريع وخطط ومقابلات ومؤتمرات لا نعرف كيف يمكن لنا أن نسمع صداها في قريتنا المظلمة، المدفونة في قاع النسيان، سمعنا بالقوميَّة من عليٍّ، تحمَّسنا، واعتبرناها خَلاصَ الأُمَّة وخلاص فلسطين! واعتبرناها خلاصنا نحن أيضًا بشكل مجهول لا تفسير له! أحدَّثوكَ يا بُنيَّ عن قضية فلسطين أم أن انشغالهم بمعارضة القذافي حتَّمَت عليهم حدود قضاياهم وحصرها بعيدًا عن أهواء داعميهم؟!

على العموم... اهتجنا وغضبنا لتخاذُل مليكنا، وكانت الإشاعات التي وصلتنا بمساهمة بلادنا في عدوان 67 قشَّةً قصَمَت صبرنا، رغم أنه لم يكن ثمة ما يؤكِّد ذلك. عليٌّ كان سفيرَنا ومُؤجِّجَنا في البيت، كان النارَ التي تُلهبنا ثورةً، بدءًا بأبي وانتهاءً بأمي، غير أن تأييدها لا يُحسب على أي حال؛ فهي تؤيِّد عليًّا في كل موقف، في كل وقفة أو سقطة، وهي تُقدِّس ما يتفوَّه به أكثر ممَّا تفعل مع أبي، كان الوضع غريبًا علينا وعلى أبي في صغرنا، وقد التقَطَت فطنتنا مبكِّرًا تَشنُّج أبي حين تعانده أمي بسبب عليٍّ أو لأجله، وشممنا رائحة غيرته، وللغيرة يا بُنيَّ رائحة لاذعة حامضة كرائحة العَرَق اليابس على قميصٍ قُطنيٍّ، بعد يومٍ كدحٍ في الحقل. ولكنه استسلم في النهاية، وبات يُمرِّر آراءه وقراراته وأحكامه عبر عليٍّ الذي خفَّفَت هذه الحيلةُ من حيائه بسبب عمايل أمي الناجمة من وَلَعِها به. يُصدِر أبي أمره أو يحدِّثها بخبر ما ويردف: «حتى علي قال ذلك... حتى عليّ أراد ذلك... حتى عليّ...»؛ فتُذعن كالمُنوَّمة مغناطيسيًّا.

أخذ رفاق الجيش منها عليًّا لفترة ما، سهرات، اجتماعات، تجمُّعات وأمور أخرى لا نذكرها، بل ربما حتى لم نسأل عنها، كانت تتوسَّله لهذا ترْكَ الجيش، تتوسَّله العودة للعمل معنا في الفلاحة وكأنها ليست هي التي زغردت لما عاد أوَّلَ مرة بالقيافة العسكرية وبالشارة المُعلَّقة على كتفه يوم تخرُّجه من الكلية، اختلف الأمر حين ذاقت طعم الشوق له، ولكي

أصدُقَكَ القول، فقد ذُقنا مرارة هذا الشوق أيضًا، لا اشتياقًا له، بل عبر عصبيَّتها التي ما فتِئَت تنشرها يمينًا ويسارًا وفي كل حدب، مع نشرها للغسيل، أو مع نشر القديد، تزيدها ملحًا أو فلفلًا يحرق أجوافنا ولا يجرؤ أيٌّ منَّا –ولا حتى أبي– على الاعتراض، سمعتُ أبي يتمتم مرة أن ربما كان في تربة أحد القبور التي زارتها في أسبوع الصالحين ذلك سحر ما أصاب عليًّا بالخير، فيما حلَّت علينا جميعًا لعنة لا نجد منها فكاكًا.

حُلم فتيات القرية والأقارب كان أخي، عرف ذلك مُبكِّرًا، لم يورِّط نفسه مع إحداهن ولكنه ورَّط الكثيرات في الوله به، كان يَعِدُهنَّ بالحب دون أن ينطق، فلا يروي ظمأهنَّ ولا يتركهنَّ بنفس مقدار عطشهنَّ! شَكلُ عروسه واسم عائلتها كان مصدرَ تخمين ولعب، ولكننا لم نحزر أبدًا ما كانت تُهيِّئه طرابلس لشابٍ غِرٍّ كعليٍّ!

خلال سنوات دراسته الثانوية في طرابلس ومن ثمَّ التحاقه بالكلية العسكرية، بدأنا نلاحظ أيام عطلات نهاية الأسبوع أو الإجازات الرسمية أن تغييرات بدأت تطرأ على شخصيته، لم يحدث هذا لأخينا الذي يصغره رغم دراسته الثانوية هناك! كان يُدَندِن بأغانٍ بلغة أجنبية لم نفهمها، يعود لنا بقمصان وبنطلونات إفرنجية لم نجدها مريحة في تلك الآونة وكنَّا نُفضِّل السروال العربي والسورية الفضفاضَيْن، ويتحدث في أمسياتنا حول سُفرة «العالة» عن معارض، ندوات، مسرحيات، سينما ومؤتمرات يشارك فيها الرجال والنساء جنبًا إلى جنب، تقطع أمي حديثه بالشهيق أحيانًا، فيؤكِّد لها أنها أماكن وأوساط محترمة، وأن المظهر الخارجي ليس مقياسًا لمعدن الإنسان... «وهل في البشر معادن يا بني؟!»، تقولها هازَّةً رأسها نفيًا، يجيبها: «بالطبع!»، يعيد شرح ما يعنيه مرارًا وتكرارًا، نبقى صامتين كجمهور مسرحية تُعرَض للمرة الأولى، لم نرَ أمَّنا تعترض على كلام عليٍّ في حياتها، إلا حين كبر وصار يتحدَّث عن النساء، نساء سافرات لا يغطِّين رؤوسهن، يسافرن دون محارم عبر الطائرة –التي لم نكن نعلم بعدُ ما شكلها ولا حجمها–، تلصق أمي لسانها على سقف حلقها ثم تطلقه فتصدر صوت طقطقة لا تدري أتتعجَّب من حال ما يحكيه أم تتعجَّب من حال ولدها الذي ذهَبَت نساءُ المدينة بعقله، تطقطق أحيانًا، وأحيانًا أخرى تُصدِر بإحدى حاشيتَيْ شفتيها المطبقتين صوتًا كالقُبلَة، غالبًا يُستَعمَل عند نسائنا بديلًا عن الحوقلة واستهجانًا لوضعٍ أو لكلام قيل أمامهنَّ.

عاد لنا إحدى المرات بمجلة تَصدُر عن المركز الثقافي الأمريكي، ولم نكن متأكِّدين من كونها تصدر حقًّا في ليبيا أم في دولة أخرى، وأين هي قريتنا والقرى المجاورة من كل الإنجازات المكتوبة بين صفحاتها؟ وأين نحن من كل تلك الوجوه المملوءة صحَّةً وبهجة؟ لولا بعض الصور التي ظهرت فيها شخصيات ترتدي «الجرد*» لاتَّهمنا أخانا بالهرطقة. كان عليٌّ يرينا صور قاعدة الملاحة الأمريكية، وهي قاعدة ومطار «معيتيقة» حاليًّا، المطار الوحيد في طرابلس، بعد أن أحرق «الثُّوَّار» مطار طرابلس العالمي!...

أراد عليٌّ إخبارنا أن هذه القواعد نوع من الاحتلال، وبأنها صورة من أبلغ صور الذُّلِّ والتبعية، وبأننا لم نَنَل استقلالًا حقيقيًّا ما دامت القواعد الأمريكية والإنجليزية تتربَّع في بلادنا، وما دامت الجاليات الإيطالية تملك أراضي الليبيين ومَن عليها من الفلاحين الذين سبق لوالدي أن ذاق ذُلَّ العمل تحت إمرتهم فوق أرضٍ تُشبِهه ولا تشبههم. ولكن لم يَبدُ لي

لاحقًا أن هذا السبب الرئيسي لإتيانه بالمجلة؛ فقد حاول إطلاعنا على النهضة الاجتماعية والاقتصادية، والمفاجئ أكثر من كل ما ذُكر، نهضة المرأة الليبية وتطوُّر أوضاعها في العاصمة، وإنْ على نطاق ضيق، نهضة ما رأيناها إلَّا انحلالًا أخلاقيًّا، وخروجًا عن فطرة الحياء التي خُلِقَت عليها.

يقول إن النهضة الحقيقية لا تكون بِيَدِ الرَّجُل وحده، ينبغي للمرأة من أن تمدَّ يدها إليه: «يد بروحها ما تصفقش»، شهَقَت أمي: «وهل تصفِّق المرأة بيدها على يد الرجل! ما قِلَّة الحياء هذه!»، حاول توضيح أن التصفيق تشبيه، مجاز أراد به شرح قصده، فلم تفهم أمي ما المجاز! عاد للمجلة:

«انظري هنا، أنت لا ترين فيهن إلا كاشفات للشَّعر، مرتديات لتنانير تصل منتصف سيقانهن، ولكن الأمر أعمق من ذلك، فهؤلاء بقدر تعلُّمِهنَّ في المعاهد والمدارس هُنَّ مُربيّات فُضلَيات...».

وقبل أن يواصل قاطعه والدي هذه المرة وكأنما خشي أن يفسد عقل أمي أكثر: «أي أمٍّ وزوجة هذه التي تترك بيتها وتختلط بالرجال! ولأجل ماذا كل هذا! حفنة مال؟ ألا يعمل أزواجهن أو آباؤهن أو إخوانهن؟!».

يشرح عليٌّ مواصِلًا عملياته لتنويم أمي مغناطيسيًّا، والتي لم تقاطع أبي –للمرة الأولى– أمام نهره ورفضه لما يقوله عليٌّ:

«جيلنا والأجيال القادمة تختلف عنَّا، لن تعود الفلاحة هي المهنة الرئيسية، هناك بترول، يعني وظائف جديدة سيعمل بها الرجال في قلب الصحراء أو البحر، وسيكون هناك في المقابل فراغ بمِهَنٍ أساسية خاصَّة بقطاعَيْ التعليم والصحة، والمرأة في هذا الجانب أقدر من الرجل، وقد رأيت بعضًا من هؤلاء النسوة الرائدات، يُدِرن حياتهن الأسرية والعملية بنجاح، متوازيتَيْن، دون أن تطغى إحداهما على الأخرى، فيهن المعلمة بالمدرسة والمعهد والجامعة، وفيهن المذيعة بالراديو، والكاتبة في الصحف، والممرِّضة، فيهن عاملات هواتف ومضيفات في الطائرات... لديهن جمعيات منظَّمة ومُعترَف بها، لا محليًّا فقط، بل إقليميًّا أيضًا، يمارسن فيها أنشطة تخصُّهنَّ كالتطريز والحياكة، يتعلمن كذلك فن الطباعة على الآلات الكاتبة ويتعاونَّ على النهوض بغيرهن ممَّن لم يحالفها الحظ بالتعليم...».

وبعد هذه الخطبة العصماء، لم يجد عليٌّ ردًّا من أيٍّ منَّا، اللهم إلا طقطقة لسان أمي، وصوت الشاي المنساب من البراد، تمسكه لأعلى بمسافة نصف متر تقريبًا عن الأكواب، التي يستقرُّ فيها الشاي الثقيل جنبًا إلى جنب مع رغوته الغنية. ثم أضاف وكأنما لينتزع موافَقةَ أمي انتزاعًا: «إن كُتِبَ لي يومًا الزواج، أقول (إن)، فسأسعى للارتباط بامرأة تفهمني، عاقلة، مُتَّزنة، متفهِّمة لظروف عملي، إنسانة تشاركني همومي ولا تظن أن أقرب طريق لقلبي هو معدتي، ولا يهمني إن كانت حاسِرةً بحجابها عن بعض شَعرِها أو سافِرَة».

شهقت أمي ضارِبةً كفَّها بنحرها واضعة البراد بقوة على السُّفرة حتى كاد يندلق فوق الكعك: «وهل ترضى أن تتزوَّج امرأة تترك بيتها للعمل إلى جانب الرجال وكلٌّ يكحِّل عينيه بساقيها وشعرها المكشوف!»، ضرَبَت كفيها محوقلة ثم تساءلت وهي تمسح بعض ما انسكب من «طواسي» الشاي على السُّفرة، بسبب ما أحدثه رزع البراد بقوة عليها،

تساءَلَت دون أن تنظر نحوه: «أين غيرتُكَ ودينُك؟ أم ذهَبَت بهما بنات المدينة؟! ربما لا ينبغي عليك أن تتزوج حقًّا!»، كان عتابًا؛ إذ لم تنتظر منه الإجابة، نَهَضَت لتصلي المغرب وهي تبرطم، وكانت تلك آخر مكاشفة لعليٍّ بيننا، انغلق بعدها على عالمه، ولم يَعُد يشاركنا بالوضع العام في طرابلس أو بقية المدن الكبرى التي كنَّا نتوق لزيارتها ونستحي من ذلك في آنٍ معًا، حتى شارك في ثورة سبتمبر.

وسط دهشة الناس وحماستهم من بيانات الثورة صبيحة الأول من سبتمبر من العام 1969، وسط لهفتنا للخروج احتفالًا لسقوط تاج الملك الذي اعتبرناه رمزًا للخنوع والتبعية، وبينما كانت حناجرنا تغصُّ بالشهقات والضحكات المملَّحة بالدَّمع، كانت أمي وحدها القَلِقَة على مصير عليٍّ الذي غاب عنَّا منذ الليلة السابقة استعدادًا للتحرُّك السرِّيّ، وانتظارًا للأوامر، ولأكون منصفًا، لا ليست أمي وحدها التي قَلِقَت من تحرُّكات ليلة الأول من سبتمبر، شاركها قَلَقَها الأغنياءُ وأصحاب النفوذ في البلاد، مع اختلاف أسبابها عن أسبابهم.

كان عليٌّ من بين القِلَّة الذين عرفوا مسبقًا، تلقَّوا الأوامر وأصدروها، وتحرَّكوا ليلًا بنفوس مهتاجة متلهِّفة للاستقلال الحقيقي! انظر... أعرف أن كلامي لن يعجبك، ولن يعجب قُرَّاءَكَ -إن كان ثمة مَن سيهتمُّ بقراءة كتابك- الراغبون في كلمات طاعنة في تَعَجرُفها، مبالِغةٍ في تحيُّزها، وهذا ربما أسهل عليَّ في هذا التوقيت؛ ولكني سأختار نفسي عليكَ وعلى قُرَّائك، سأختار راحة ضميري، وإن اعتُبِرَت شهادتي شهادةَ شخصٍ نَفعيٍّ، لا ينظر لأبعد من موطئ قدمه وراحة أبويه وإخوته... يا بنيَّ، «لما اطيح البقرة، يكثروا سكاكينها»، ولكني لا أملك سكِّينًا أنضمُّ به لفريق الجَزَّارين الذين ملؤوا بطونهم أيام الجماهيرية، ثم ازدادوا تُخمةً بعدها! هل كان ثمة ظلم في أيام القذافي؟ بلى، كان ثمة ظلم كبير، ولكن الحديث عنه في هذا الوقت وهذه الأيام يبدو كنُكتَةٍ سَمِجَة! ائتني بالعدل والأمان وسأتحدَّث مثلك ومثل أولئك المقيمين بالخارج عن ظلم تلك الأيام... أمَّا أن ينطلق لسانك بظلم سابق في زمن الظلم الأعظم فهذا والله نفاقٌ أكبر هَوْلًا ممَّا عرفنا سابقًا!

بالعودة لحالة أمي ذلك اليوم، لم تكن على قدرٍ من الإدراك الكافي لتفهم لِمَ نُفضِّل مجلسًا عسكريًّا، ومن ثم حكمًا جمهوريًّا عِوَضًا عن التاج الملكي، لا ولم تعرف ما معنى اشتراكية حتى بعد أن شرحنا لها ما سيحدث، أطرَقَت في أكثر المرات التي أرهَقَت فيها عقلها تفكيرًا ولم تخرج إلا بفكرة واحدة: «وأصحاب الأملاك، الليبيون الذين ستُؤخذ منهم ممتلكاتهم، مَن سيعوِّضهم فيما رزقهم به الله؟»، حسنًا، أنتَ تعلم كم هُنَّ النساء عاطفيَّات، لم نكن نملك جوابًا إلا «يعوّضهم الله، فحالهم لن يكون كحال سُكَّان الأكواخ مثلًا، أو الذين أفنوا صحتهم وأعمارهم في خدمة الطليان فوق أراضٍ ليبية»، نحاول شرح الوضع المأساوي للغالبية العظمى من شعبنا القليل أصلا، أوضاع كانت أسوأ حالًا منَّا.

استُقبل عليٌّ -بعد فكِّ حظر التجوال وعودته من طرابلس- استقبال الأبطال في قريتنا، أولمنا له، كنَّا فخورين بما صنعه، تباهينا بانتمائه وبأفكاره التي لم يكن معظم الحاضرين يفهمها، اشرأبَّت الأعناق للأيام القادمة، والبسطاء لم يفكروا كثيرًا فيما تعنيه القومية والأمة العربية، أو الاشتراكية، كانوا يفكِّرون فقط في الكيفية التي ستتغيَّر بها حياتهم وفق ما أشيع عن حكم عبد الناصر المناصر للفقراء، ولم يَخِب ظنُّهم وفق ما جرى في العامين التاليين.

وكما اعتُبر عليٌّ بطلًا قوميًّا، اعتُبر كذلك سفيرَ القرية لدى مجلس قيادة الثورة لقربه الشخصي وعلاقاته الودِّيَّة معهم، من رأسهم الزعيم وحتى أول الضُّبَّاط المنشقِّين عنه في السنوات القليلة اللاحقة، واعتُبِر لاحقًا مسؤولًا عن التجاوزات والقرارات الارتجالية الغريبة والمؤذية التي حصلت تباعًا، خاصَّةً في أواخر السبعينيات، وامتدادًا إلى عَشريَّة القهر في الثمانينيات، حتى فقدناه في تشاد، غُرّمٍ عليٌّ كأنه القذافي عن كل قرار جديد لم يعهدوه أو ارتأَوْا فيه سوء تدبير، وكان في ثورة الطلاب والأحكام الظالمة امتحانٌ حقيقيٌّ لنا، امتحان لإيماننا بجدوى الثورة، وإيماننا بحكمة الشخص الذي تزَعَّمها، كان عليٌّ أيامها يدفع ثمن مبادئه الثورية وأفكاره.

هل كان القذافي وحده المسؤول عن كل ما يجري؟ يُصرُّ المعارِضون –الذين نشأتَ في كنفهم– أن نعم، يتحمَّل وحده كامل المسؤولية، والبقية الذين مثَّلوا بالجثث أو تعلَّقوا بها وهي متدلدلة من المشانق لا يستحقون إلا فتات العقاب؛ فهم قومٌ وهو وليُّهم، ولكني أرى غير ذلك، بل أرى العكس تمامًا، وكذلك كان عليٌّ، فما فسَدَت كثير من قرارات القذافي، وما فسد حُكمُه في فترةٍ ما لاحقًا إلا بسبب القذارة التي تجمَّعَت حوله، هتَفَت باسمه، وأنسته نفسه، صمَّت أذنيه، وصنَعَت في مرأى عينيه قلاعًا من وهم القوة اللا نهائية، والسلطان الأبدي، ألا ترى معي أن الأمر يتكرر مع الديكتاتوريات القِزميَّة الجديدة التي تكوَّنَت في كل إقليم من البلاد، في كل مدينة، وكل حيٍّ؟! وألا ترى أن هذا تمامًا هو نفس الفخِّ الذي وقع فيه الملك إدريس سابقًا؟ فخِّ الحاشية المتعفِّنة التي تنشر الدُّودَ ينخر في عظم الأمة.

استُبدل الوطنيون المخلصون من أبناء الجيش الأوائل بقوة همجية ممَّن أسموا أنفسهم باللجان الثورية، فطغوا وأحلُّوا لأنفسهم ما حرَّموه على رموز النظام الملكي! كانوا يقولون ما لا يفعلون، وتجاوزوا بذلك حضيضَ المنافقين ومن ذُمَّ من الشعراء، بل تمادوا في ذلك حتى أتوا بمفاهيم جديدة وصنعوا لأنفسهم لوبي وقف بالمرصاد لكل محاولة من محاولات النهوض بالبلاد والعودة بها مجددًا إلى المسار الصحيح، لا أنكر مشاعر الغضب والقهر التي غالَبَتنا لعقدين من الزمان تجاه شخص القذافي، فقد تحوَّل تدريجيًّا لأيقونة من أيقونات القهر والاستبداد، وعانى أخي من سياط الشَّكِّ والندم في كثير من الأحيان، إلا أنه ظلَّ يعتقد بأن صاحبه (وأعني هنا القذافي) غارِقٌ في حالة غيبوبة مؤقَّتة لا يلبث أن يستيقظ منها.

اعتبرنا اللجان الثورية زبانيته، وفقدنا قدرتنا على تصديق أي محاولة أو تلميحات بالإصلاح، ولكن نواياه بقِيَت بالنسبة لي ولعليٍّ ولبعض الناس من أمثالنا محلَّ شَكٍّ في بقائها على نقائها الأول من عدمه، وإن أحاطتها القذارة من كل جانب، فيما اعتبر كثيرٌ من الناس بأنه ينوي استبدالنا بشعوب أخرى، وبأنه حاقد على الليبيين أجمع لما عاناه من فقر في طفولته، وبأنه غير مهتمٍّ إلَّا بمجده الشخصي وصناعة تاريخه الخاصِّ، وإن كان على رفات مئات الآلاف منَّا، ففي التحليل النفسي والسياسي والعسكري والوجداني والهُرائي لا أحد يغلبنا، خاصَّةً المعارضون هناك من حيث أتيتَ.

لا يمكنني تصديق أي دعاية، أي اتهامات أو أدلَّة تأتيني من رجال يَدَّعون النضال، يقيمون وراء المحيطات، ويأخذون أجرًا ماديًّا على مناكفتهم لهذا الرجل، أو على ما يسمُّونه نضالًا! مهما بلغ طيشه وفساد نظامه، هذا النوع من المعارضة أعتبره معارَضةً للوطن لا للرجل؛ فهي لا تُقدِّم حلولًا وطنية، هي تُقدِّم حلولًا جاهزة مستوردة، حلولًا مُشوَّهة ها نحن الآن

نرى أحد أوجهها... أنتَ مُعارِض؟ «علي عيني وراسي»، تعالَ ناضِلْ هنا وواجِهْ مصيرك كرجل وطني مخلص حقيقي، دون مقابل مادي؛ كي يصدِّقَكَ الناس على الأقل ويؤمنون بما تقول! حتى إن لم يحدث التغيير مباشرة، فالمعارضة الشريفة بذرة، لا بُدَّ وأن تُنبِتَ يومًا ما وتُزهِر بطريقة أكثر سلميَّة وأقل دَمويَّة ممَّا حدث في 2011 وما تلاها.

لا يمكنني المصادقة على هذه الشكوك كما يفعل معظمنا ولا إنكارها بالكلية؛ لأني عرفت هذا الرجل –عبر عليٍّ– قبل أن يُغيِّره السلطان، نحن لم نرَ بديلًا لهذا الرجل، ربما هذا ما يبرِّر مشاعر الحنين لأيامه والندم على ما ضاع. عاصرنا الملك الحاكم قبله، رغم أن حكمه كان فرديًّا أيضًا، ولكنه كان كذلك في المسائل الداخلية فقط، أمَّا الخارجية فقد اعتدنا أن تأتينا الأوامر من الخارج لا منه، ثم شخصية القائد، فلنقُل رئيس الجمهورية، أو قائد الجماهيرية، بجبروت داخلي وخارجي، ومن بعدهما لم نرَ إلا الحمير والبهائم التي تحمل أسفارًا لا تعينها على إدارة بلد شاسِعٍ بشعب صغير العدد، صغير السن، ضئيل الطموحات والأحلام! فكيف تتوقَّع مني غير موقفي هذا؟!

وقبل أن تملَّ من عمّكَ بسبب خروجي عن موضوع أخي ودخولي معك فيما تعتبره نقاشًا بيزنطيًّا، وبالعودة إليه، قرَّر عليٌّ الزواج فجأة ذات أمسية بعد عودته من زيارة صديق له في طرابلس، كان ذلك بعد الثورة –أو إن رَغبتَ: الانقلاب– بسبعِ سنوات، بلغ عامه الثاني والثلاثين، أقول فجأة لأنه رغم إلحاح أمي عليه بالزواج من فلانة وعِلّانة فقد أبَى، سألته برحمة أبينا الذي توفي بعد الثورة بعامين ولم يَعِش معنا الرخاء الذي عشناه في السنوات القليلة بعدها، سألته برحمة أولادها الذين ماتوا، برأسها ورأسي ورؤوس الليبيين جميعًا، وببركة الصالحين الذين أتوا به من عالم الموتى، ولكنه أصرَّ ألَّا يتزوج، وفي هذا كانت له وجهة نظر صادَقَت عليها الأيام والسنوات اللاحقة، فأمي التي كانت تصرُّ على إتيانه بعروس، لم تكن لتعامل الكِنَّة إلا كضرَّةٍ لا كِنَّة، مع عليٍّ تحديدًا، لا معي، ولا مع أخينا الأصغر بالطبع، زوجة عليٍّ كانت الضُّرَّة المنتظَرَة التي أصرَّت أمي على إتيانها!

مُنِح عليٌّ حُبًّا عظيمًا، وكان الثمن بقدر عظمته، كان الثمن هائلًا! مشاكل ربما حكت لك عنها غزالة حين التقيتَها في تونس. هل أخبرَتكَ عمَّا رأته من أمي؟ حسنًا، عليك أن تضع في حسبانك ألَّا حكاية بوجهٍ واحد، وأنها... لربما بالَغَت قليلًا؛ فهي شخصية حسَّاسة، وقد أساءت فهم كثيرٍ ممَّا كنَّا ندفعها إليه حبًّا في دمجها في الوسط الجديد الذي وجَدَت نفسها فيه، والحق يقال، لقد كان كل الخطأ على عليٍّ، من بين كل الليبيات لم يختر إلا خالتك غزالة التي لا تنتمي لنا إلا بأوراق رسمية، فلا هي تفهم تلميحاتنا، ولا هي تستوعب احتياجات مجتمعنا المحافظ وواجباتها تجاهه! ولم تقبل حتى بمحاولاتي إعادتها لجادَّة الصواب هي وحسناء بعد استشهاد أخي، أو اعتقادنا باستشهاده.

لا تفهم أرجوك كلامي تحامُلًا عليها، ولستُ هنا أتمنى لو لم تكن زوجةَ أخي بالطبع! إنما في الأمر حسابات خاطئة ارتكبها أخي، ودفَعَت هي ثمنها دون أن تعلم لماذا هي مَن دفع الثمن. ربما قسَوتُ عليها أحيانًا باعتباري في مكانة أخيها الكبير، فأنتَ تعلم أن النصح يستوجب بعض الحزم والتوجيه المباشر، إلَّا أنني –ويشهد الله– لم أُضمِر لها مشاعرَ كُرهٍ، ولا

لابنتنا حسناء بكل تأكيد، قد لا يَحِقُّ لي سؤالك الاطِّلاع على شهادتها، ولكني أسألك وأستحلفك ألَّا تنشر فيها ما قد يسيء لذكرى أمي الراحلة، أو ذكرى أخي، أو... ما يسيء لي ولزوجتي بالطبع!

حين أجلس أحيانًا أتأمَّل في حال أخي هذا وحياته، لا أراه إلا أسيرًا في كل تقلُّباته، قبل أَسْرِه في الحرب وبعدها، لقد كان أسيرَ حُبِّ أمِّنا الأعمى حدَّ حافَّة الجنون، ثم وقع أسير حُبِّه هو لغزالة، حبًّا لم يَجْنِ منه إلا الشقاء والحياة النَّكِدة بسبب أغلال أمي التي أحكَمَت وثاقه وغزالة بها من جهة، وعناد غزالة وكبريائها من جهة أخرى، لقد كان أيضًا أسيرَ ذكرى مشاركته في انقلاب سبتمبر -إن أحبَبتَ تَسميَته كذلك-، لم يستطع التخلُّص من تلك الوصمة في السنوات العشر التي سبقَت فقدانه في تشاد، ولا حتى عودته من الحرب الأولى في 1980 منتصرًا لما اعتبره حقًّا ليبيًّا تاريخيًّا في أراضٍ ليبية، واعتبرها الليبيون حربًا لا ناقةَ لنا فيها ولا جمل، لقد كان عليٌّ أسيرًا بمرتبة الشرف، هذه ربما كانت ضريبة العودة من الموت، مرَّة بعد أسبوع الصالحين ذاك، ومرة بعد العبور المقدَّس من السويس إلى سيناء، ومرتين بعد نجاته من الموت عطشًا والأسر في صحراء تشاد، أحيانًا أتمنَّى لو مات قبل أن يشهد حياة مُتخَمَة بكل هذا الوجع، سواء ممَّن أحَبَّهم، أو مِمَّن عاداهم على حدٍّ سواء.

---

* رداء ليبي تقليدي من الصوف، منه الأبيض ومنه البني بدرجاته، يرتديه الرجال.

الحُبُّ

«توماس يا صاح... أشكرك على تفهُّمِكَ، ولا تقلق؛ فأنا أعمل على الكتاب رغم شكوكي حياله... سأستمر في الكتابة إليك أيضًا...

حالة أمي بدأت في التحسُّن، بدأت تعود لأحاديثها العادية معي على مَضَض، ولكنها ما زالت تتجنَّب تلميحاتي أو الاقتراب مني حين أنكبُّ على كتابتي، وكأنها تخشى اكتشافها بأني ما زلتُ أعمل على نفس المشروع الذي اعترَضَت عليه هي وجَدِّي الراحل.. وهي تتجنَّب أيضًا الجلوس إلى جواري إذا ما لاحَظَت أن المتحدِّث معي على التلفون أختي حسناء؛ تعاني أمي الفقد، والغيرة أيضًا، حتى بعد كلِّ هذه السنوات.

أما حالتي فبالعكس، فكلَّما هاتفَتني حسناء، وكلما وخزني الشوق لفتاة أحببتها هناك وخذَلَتني، وكلَّما هاتفَني صوت صديق اكتسبته هناك أيضًا؛ أشعر بحفرة وَهَنٍ تزداد في المنطقة الواقعة تحت ضلوعي تمامًا تلتهمني من الداخل... كذلك اشتياقي المبالَغ فيه للخالة غزالة وأختي حسناء، كيف لرحلة لم تتجاوز الشهرين أن تصنع بي كل هذا؟! شعوري بأن العلاقات التي اكتسبتها والمعارف التي نلتها ليست مؤقَّتةً يزيدني ارتباكًا... لم تكن رحلة سياحية أقطع بعدها حبل الوصال بمن عرفتهم وبما عرفته! هل أبدو لك عائدًا باضطراب نفسيٍّ؟ قُلها، فلن ألومك! المهمُّ، سايِرْني واقرَأْ رسائلي وكأننا نجلس معًا؛ إذ لن أقدر على تكرار ما أكتبه بالتكلُّم عنه حين نلتقي، وسأتعامل معك كما لو أنك قرأتَ وفهمتَ كلَّ كلمة، فلا تسألني حين نلتقي عن مزيد من التفاصيل كي لا أكره نفسي... فأنا لا أرتاح حين أتكلم، فيما تمنحني المساحات البيضاء الفُرصةَ الكافية لأقول ما لم أقله شفهيًّا، تمنحني السكون للتعبير عن مشاعري دون ضغوطات، وتمنحني الوقت للتفكير جيدًا فيما عليَّ قوله للعالم، ولعينيها تلك التي ما عادت تردُّ على رسائلي! أنا على الورق يا صديقي حقيقي أكثر.

مجدَّدًا... صلِّ لأجل صاحِبِك».

بدأت سارة تنبذني مُذْ عرَفَت بأن شهادة أبيها ستكون واحدةً من فصول الكتاب، أي قبل رحيلي بأسبوع واحد... نَعتتْني –هي أيضًا– بالأناني في لحظة صدق مكتوبة، هي أيضًا تكون أكثر جرأة وربما صدقًا حين تكتب لي، لا حين تواجهني في لحظات عابرة خلال ساعات النهار... ضايقَها أن ما حكاه وما آمن به عمي لا يناسب «الموضة الفكرية» أو بالأحرى الضياع الفكري الذي يتَّسِم به جيلنا... ولا أدري، هل اعتراضها خوفٌ على صورة والدها أم خَجلٌ منها! لِمَ علينا محاكمة الآخر على أي حال؟ أليس كل إنسان ما هو إلا حصيلة معادلة بيئية لا تتكرَّر مع سواه؟

لو عَلِمَت سارة بمحتوى شهادة الخالة غزالة إذًا لفعَلَت بي أكثر!

أرجو أن تغفر الخالة غزالة لي اقتحام مغاراتها السرية، ما زالت وحسناء في تونس تدبّران أمر منفاهما الاختياري خوفًا على حياة حسناء وسلامتها، بعد نجاتهما بأعجوبة من عملية اعتقال لا أحد يدري أين كانت ستؤدي بهما... الشكر لهشام طبعًا؛ لسعيه الجبَّار على إيصال الإيجارات وتحويل ما استطاع تحويله من الأموال للمنفيَّتَيْن هناك، أستغرب، لِمَ يقف عمّي موقفًا سلبيًّا حتى بعد عِلمِه بتفاصيل هروبهما نوڤمبر العام الماضي! هل قرَّر أخيرًا بأن السيدة غزالة امرأة قوية ومستقلَّة وباستطاعتها تدبُّر أمورها بنفسها؟!

تعرُّفي إلى أختي كان أروعَ ما حدث لي في حياتي. في الحقيقة أنا شاكر لحسناء؛ فحرصها على التعرُّف على أبينا بعد أن عَلِمَت بالصُّدفَة حقيقة عدم مقتله في تشاد كان السببَ في قفز فكرة الكتاب برأسي في وقت كنت بأمَسِّ الحاجة لمشروع كهذا... رغم دراستي الحقوق جبرًا بخاطر جدي ووالدتي، لم أتخيَّل نفسي يومًا مُحاميًا أو قاضيًا ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، تخيَّلتُ نفسي فقط «كاتبًا»، أقنعتُ نفسي بقبول ضغوطات أمي وجدي ودرستُ الحقوق على أمل أن تكون مهنتي كمحامٍ محمَّلة بالحكايا المثيرة، والتي قد أستثمرها يومًا ما في كتاب ما، ولكني غيَّرتُ رأيي بعد التخرُّج؛ فأنا لا أطيق العيش بعيدًا عن الكتب، والمحاماة ستأكل وقتي، ستلتهمه بلا رحمة، لن يكون هناك المزيد من القراءة، ناهيك عن الكتابة! ولا أرى أن الحياة تستحق أن يمضيها المرء في جني المال ليأكل وينام دون شغف حقيقي وعشق لما يقوم به ليجني المال؛ لذا، قرَّرتُ العمل في مكتبة الكلية، وقد رحَّبوا بطلبي، هذا بالنظر لملفي المتخم بالدراسات والمقالات التي نُشِرَت في دوريات خاصة بالكُلية، لم ترضَ أمّي وثارت ثائرتها، اتَّهمتني بالجنون، وبانعدام حِسِّ المسؤولية.

كنتُ في المكتبة أبحث عن موضوع كتابي الأول، أبحث دون جدوى، أبحث بفوضى عارمة وبتيهٍ حقيقيٍّ؛ إذ لم أكن قد اكتشفتُ بعد أيَّ التصنيفات أميل للكتابة فيها، وهل ينبغي عليَّ اكتشاف التصنيف قبل الكتابة، أم أني سأكتشفه أثناء ذلك؟! وهل يهمُّ التصنيف حقًّا؟ ألا يُعدُّ قيدًا بشكل ما؟

المهم أنني بقيت في تيهي لا يواسيني إلا جلوسي في المكتبة أساعد الباحثين وأنصحهم، وأقرأ... أقرأ... أقرأ... أجني المال من القيام بفعلٍ لا أمَلُّه. غير أن سقف طموحي ظلَّ يعلو، أرغب في أن أُقرَأ أنا أيضًا، لديَّ تلك الحاجة لأن أُذكر، ولأن أوثِّق وأترك أثرًا في العالم! كتبتُ بضع مقالات وقصصٍ نشرتها مقابل مكافآت مادية بسيطة، وأحيانًا دون مقابل بالمرة، لعدَّة دوريات ومجلَّات محلِّيَّة، ولكن ليس هذا ما أصبو إليه...

حتى جاء اليوم الذي سمعتُ فيه أمي تحدِّثني حديثًا عابرًا نقَلَته لي بلكنة تستدعي طرافة الحكاية: «أختك تبحث عن والدك، تصوَّرْ أنها عرَفَت للتوِّ أنه لم يَمُت في تشاد، وبأنه جاء إلى أميركا معارضًا لنظام القذافي! مسكينة، يبدو أنها فَرِحَت، ويا فرحة ما تمَّت! إحدى صديقات العَمَّة فوزية كانت تسألها عن والدك بإيعاز من زوجته السابقة هناك في ليبيا، اعتقَدَت أنه ربما لدى فوزية أي معلومة باعتبار زوجها كان أسيرًا أيضًا في تشاد... دنيا صغيرة!».

دنيا صغيرة أجل، وعجيبة أيضًا... لفظة «أختك» حين نطَقَت بها أمي وكأني معتاد على سماعها ضرَبَت رأسي وأفقدتني توازني للحظات، يمكنني الآن التعرُّف على أختي إذن! أختي التي سمعتُ عنها بالصُّدفة في صغري ولم أُبالِ بمعرفة

المزيد عنها! وخُيِّل إليَّ لحظتها بأن والدي لوحة فُتِّتَت لقِطَع بازل مثلي أنا تمامًا، نصفها عندنا، ونصفها هناك، في ليبيا... وفكَّرتُ فورًا، لِمَ لا يكون موضوع كتابي الأول؟! كيف لم يخطر هذا ببالي سابقًا ولم أبدأ أنا بالبحث عن هذه الأخت وأمها؟ لِمَ لم أفكر في البحث عن أقاربي من جهة أبي من قبل؟ لِمَ بقيت أُصرُّ على أن العالم محصورٌ في هذه البقعة الجغرافية منه؟! فعلتُ تمامًا كمن يبحث عن ولده الضائع الذي يجلس فوق كتفيه مدلدلًا رجليه!

وفورًا طلبتُ من أمي وسيلةَ تواصُل مع تلك السيدة التي جاءتنا بالنبأ، ومنها تحصَّلتُ على بريد حسناء الإلكتروني وراسَلتُها، خفتُ لبرهةٍ عدمَ تجاوبها معي، خاصَّة بعد أن علمتُ بأنها -رغم إبلاغها بوجود أخ لها في هذا العالم- لم تحاول أو تفكِّر في البحث عني... أتراها غاضبة من أبيها وزحف غضبها على أسرته البديلة في أميركا؟ هذا كان السؤال الذي خطر ببالي...

مشاعر بعدم ارتياح كانت مشحونة بالقلق والتردُّد في رسائل التواصل الأولى، لم يرحل التحفُّظ إلَّا على عتبة ممرِّ الوصول في مطار قرطاج... ولا أدري، من أين أتت حسناء بذاك الحضن؟ أين كانت تدَّخِره؟ وما الذي فعَلَته بي إثر ذلك الحضن؟ ولِمَ شعرتُ برغبة عارمة في البكاء؟ نالتني حتى بعض مشاعر تأنيب الضمير بسبب الألفة الغريبة التي ربطتني فورًا بالخالة غزالة! أُلفة لا علاقة لها بالعقلانية ولا بالمنطق اللَّذَيْن أعتزُّ بكونهما جزءًا لا يتجزَّأ من شخصيتي! وشعرتُ أنني بشكل ما... أخون أمي! فهذه السيِّدة كانت المُفضَّلة لدى أبي، ولا أظن أنه من المناسب أن تعرف أمي بأنها نالت حيِّزًا من قلب ابنها! لا أعرف من أين جئتُ بهذه الأفكار وكأني طفل يخشى من غيرة أمِّه عليه حين تلاحظ مَحبَّته لمعلِّمته الأولى وتقديسه لكلامها!

صوتي عبر التلفون فضح قلقي هذا بعد مجيئي لتونس، وأمي من النوع الذي يملك فراسة سمعيَّةً، تُلحُّ عليَّ بالسؤال عمَّا يحصل معي، «هل ثمة ما يزعجك؟ كيف تُعامِلُكَ أختك؟... وكيف وجدتَ غزالة؟»، لم أعرف ما الذي تودُّ سماعه تحديدًا فألبِّي لها رغبتها، هل تنتظر مني ذمًّا يُرضي غرور المرأة المجروحة فيها؟ أم تنتظر مدحًا لهما يطمئنها على راحة ابنها رفقتهما، كأي أمٍّ؟ كنتُ أفهم أمي وأتنبَّأ بردود فِعلها بنسبة خطأ صفر بالمئة، حتى خرجتُ بموضوع هذا الكتاب، فقدتُ الخريطة ولم أعُد أفهم كيف أُربِّت على روحها، وتجلدني فكرة أن أنانيتي -كما يقولون- هي تحديدًا ما أضاع الخريطة، وضيَّعَني.

قضيتُ مع الأم وابنتها أسبوعًا قبل السفر إلى ليبيا، وأسبوعًا بعد العودة منها... وددتُ لو بقيت أكثر عند العودة، أردتُ من حسناء مساعدتي في تفريغ تسجيل عمِّي وتسجيل غزالة، ولكننا فضَّلنا كسب الوقت في متعة التَّعرُّف أكثر على بعضنا، في المرة الثانية دعتني الخالة غزالة للإقامة معهما، وكان أفضل أسبوع في هذا العام على الإطلاق، أسبوعًا كاملًا من البهجة، الاكتشاف والنقاشات والنكات... وانتابتني إثر عودتي مشاعر الندم بحدَّة لأني ضيَّعتُ فرصة اللقاء الأخير بجَدِّي قبل أن يفقد وعيه كلِّيًّا، ترنَّحت مشاعري ذهابًا وإيابًا، بين محبَّتَيْن، وحُضنَيْن، ووَجَعَيْن...

لم تكن حسناء وحدها بطلةَ ذاك الأسبوع، فالخالة غزالة سيدة مثيرة جدًّا للاهتمام، إذا أردتُ النُّصح وَجَدتُها خيرَ النَّاصحين، إن أردتُ النكتة خرَجَت لي بأطرف الحكايا والمواقف من حياتها الخاصَّة وعملها الطويل في الصحافة، ومن ثم الإذاعة، إن أردتُ الدفء غطَّتني بحضنها... يبدو العمر حين تستدعي ذاكرتها مجرَّدَ رقم، مجرد وهم، لا يمكن لهذه السيدة التي تتحدث عن الشوق واللهفة والحب والحنق والغضب أن تكون في الخامسة والستين! كيف استطاعت استدعاء هذه المشاعر التي يميل كثير من الناس إلى التصالُح معها، ومن ثم نسيانها، حين يتقدَّم بهم العمر؟!

غزالة: شراع من دون صاري

«هو الليل يا قلب، فانشر شِراعَكَ، واعبر خِضَمَّ الظَّلام العميق

وجَذِّف بأوهامك الرَّاعشاتِ، في زَورَقٍ ما به من رفيق*».

بقيتُ أعلِّق هذه الكلمات شعارًا لي رغم ما يُقال بأن البَثَّ بلواعج القلوب يشفيها، حسنًا، لم أصدِّق يومًا هذا. أنطلق بذكرياتي، طموحاتي، وأوهامي ليلًا، أحلم وأتخيَّل، ما كان وما سيكون، وما كان ينبغي أن يكون، وأتذكَّر ويزدحم عقلي ويتشابك مع دخان سيجارتي الأخيرة قبل النوم، يضطرب قاربي ويهتزُّ شراعي أحيانًا بين حقد وغفران، بين شوق ومجافاة، أجذِّف دون وجهة، وأُوجِّه شراعي منتصبًا نحو المجهول بعد أن فقدتُ مَن اعتبرته يومًا الملَّاح الذي اكتشف أسرار بحاري ونوباتها... فقدته بعد أن توقَّفتُ عن الإيمان بمهاراته، وقلتُ لن أُبحر مع صارٍ آخر، سأمضي في بحاري مع ابنتي ولا بوصلة لي إلا حبها ومنحها الحياة التي تستحقها.

لأجل ماذا أكسر قاعدتي، وأتمرَّد على قوانيني الآن أمامك يا آدم؟ لا أدري! هل لإلحاح حسناء التي ستسمع في اللحظات القادمة ما لم تسمعه سابقًا مني؟ ربما. هل لأنك

نسخة مطابقة –إن استثنينا بشرتك الحليبية ونحافتك– من عليٍّ؛ والدك، ووالد حسناء، وزوجي السابق؟ على الأرجح...

كنت أشكُّ في قدرتي على المغفرة، وإن ظهر حيًّا يرزق من جديد. حتى حين علمتُ بأنه حيٌّ يُرزَق تجاهَلتُ الأمر؛ خوفًا من تكرار سيناريو الوجع، وربما خوفًا من أن أغفر له، أقول رُبَّما لأني بتُّ أتصوَّر بعد رؤيتي الأولى لك كيف سيكون موقفي حال التقيتُ به مجدَّدًا بعد فقدانه وأَسْرِه.

بعد العام الأول من زواجي به توصَّلتُ إلى قناعة مفادها بأن الحبَّ الأعمى ينتهي بالزواج... أعني ينتهي حرفيًّا؛ إذ إنه بالزواج يستعيد بصيرته ولا يعود أعمى. للأسف، يحدث هذا بعد طفلٍ أو اثنين، وغالبًا ما تكون النتائج وخيمةً. بقيت أدور في فلكه كفراشة نور ولا أملك خيارًا بالابتعاد. ولا... لم يكن السبب هو وجود حسناء، بل كان مكابرةً من جهة خوفًا من لوم أبي وأخي لي، وقرارًا بتحمُّل كافة مسؤولياتي المترتِّبة على قرار زواجي منه من جهة أخرى، رغم أني حينما اتَّخذتُ هذا القرار لم أكن في كامل قواي العقلية، لا أعني أني عانيتُ اضطرابًا عقليًّا، ولكني أقول هذا لسيطرة مشاعري على عقلي تلك الآونة، مشاعري التي جاملتها على حساب حدسي مرَّاتٍ عديدة، وبنيت بها برجًا من التوقُّعات، فصدق الحدس وكذبت توقُّعاتي، وانهار البرج.

ثم إن هناك سببًا آخر؛ فقد كنتُ أخشى التغيير مجدَّدًا، وتجربتي الأولى في الخروج من القوقعة، تجربتي الأولى في رمي نفسي من أعلى جرف لا أعلم ما يقبع أسفله، جعلتني أخشى الخوض مُجدَّدًا في أي تجربة جديدة، كنتُ أخشى الطَّلاق، أجل، مثلي مثل أي سيدة ليبية غير مرتاحة في زواجها، رغم أن والدي لم يكن من النوع الذي سيجبرني على العودة، بالعكس... كنتُ واثقة من أنه لن يقول لي مثلًا: «المرا مالهاش إلا حوشها»... وأنا أنتمي للمقامرين حين يتعلَّق الأمر بعلاقات جديدة وفرص حياة جديدة، يعني بكل ما هو جديد، أُقبل عليه بشغف وانجراف شديدَيْن، وكما يُقال «كل جديد، له ولعات»! ولكني تحمَّلتُ مسؤولية انجرافي بعناد لا أتصوَّر أني استَطَعتُ تكراره بعد ذلك، ثم خشيت من تكراره فأحجمتُ عن اتِّخاذ أي خطوة جديدة بعده.

التقينا ذات أمسية ربيعيَّة صُدفةً بين أروقة معرض طرابلس الدوليّ في العام 1970، تحديدًا في الجناح السوري، إذ ظلَّ يلاحقني الحنين إلى دمشق بأسواقها الشعبية وبيوتها الفردوسية، وكنت حينها حديثةَ عهد بالإقامة في ليبيا بعد أن قرَّر أبي الحاج مصطفى الكريتلي العودة إليها إثر وفاة أمي، عامان فقط لم يتسنَّ لي ولوالدي خلالهما الذهاب لزيارة أخي وأخوالي في دمشق، وحين أُعلن عن فتح معرض طرابلس الدولي أبوابه للزوار طرتُ شوقًا إلى الركن السُّوريّ، وشكرتُ دمشق لأنها قرَّرَت أن تزورني بنفسها لتطمئنَّ عليَّ. خبا تدريجيًّا شوقي لها مع السنوات، حتى وصلتُ لمرحلة لم أَعُد أتوق إلا لزيارات أخي، خاصَّة بعد أن فقدنا من الأقارب والأصحاب من واراه التراب عنَّا عامًا بعد آخر، ولم تربطني بالأجيال الجديدة من أبناء أخوالي أو أبنائهم أيَّة علاقات، كنتُ دومًا منحازة لمحبَّة أبي، منحازة لما يهوى قلبه وما يشتاق، منحازة إلى طرابلس رغم أنني نشأت في دمشق! وأقلِّده حتى صِرتُ صورةً مُؤنَّثة عنه، على ما أحسب.

أقول إننا التقينا في الجناح السوري، ظنَّني سوريَّةً حين سمعني أساوم أحد الباعة، انجذب فورًا للمزيج الغريب بين ملامحي وحنطيَّة بشرتي الداكنة غير المتوائمة مع الشكل النمطي للشَّوام، وأنا... انجذبتُ فورًا لبدلته العسكرية، والتي لسببٍ ما كان يرتديها في المعرض ذلك اليوم، ربما كان عائدًا لتوِّه من عمله! المهمُّ أنني كنت مفتونةً بها... ومفتونة بوقار شيبتين لمعتا لي خلف أذنه اليسرى مباشرة حين اقترب مني متظاهرًا بفحص ساعة مُطعَّمة بالصَّدَف، شيبتان مستعجلتان إذ كانت تفصل بينه وبين الثلاثين أربعة أعوام أخرى، لا أتصوَّر أنك تملك مثلهما؛ فقد نشأتَ في ظروف غير تلك التي نشأ فيها.

ولأنه لَفَتَ انتباهي، لاحظتُ ملاحقته لي بين بقية الأجنحة والمعروضات، يتأمَّل البضاعة حيث أقف، ويطلب من المقهى ما طلبت، ثم يجلس إلى الطاولة المقابلة لي، على الكرسي المقابل لكرسيِّي، ما زلتُ أذكر رعشة الفضول والسعادة لأنني لفتُّ انتباه هذا الرجل تحديدًا، لأنه مهتمٌّ بي، تجرَّأتُ وابتسمت له ابتسامة مستعجلة تظاهرت بأنها حدَثَت بالخطأ، فردَّ عليها بابتسامة واثقة عريضة... نعم كابتسامتك في هذه اللحظة تمامًا!... غير أن الابتسامة تبدو لي جزءًا من وجهك يا آدم، ولكنها لم تكن كذلك لعليٍّ، لم يكن صاحِبَ وجهٍ بَشوش، ولكنه كان حين يبتسم، تشرق الدنيا!...

أقبل بعد أن أحسَّ قبولًا مني، استأذن الانضمام مُزيحًا طاقيته العسكرية واضعًا إيَّاها أمام صدره كأيِّ رَجُلٍ نبيل دَمِث، استأذن بلهجة بيضاء أربَكَتني قبل أن أفهم اعتقاده بأني ضيفة سوريَّة، حيَّيتُه وسألته إن كان بمقدوري تقديم خدمة

ما، أو إن كان يُشبِّه عليَّ، لاحظ لكنتي الليبية فبانت الحيرة عليه، صارحني مباشرةً بظنِّه فأخبرته بأني ليبية، عائدة للتَّوِّ من المهجر السوري، الذي كان منفى اختياريًّا لأبي الهارب من حُكمٍ إيطالي بإعدامه في العشرينيات... ابتسَمَت عيناه، سألته: «هل خاب ظنُّكَ حين ظننتني سوريَّة؟»، أجاب: «بالعكس تمامًا»، وانخرطنا في أحاديث عامَّة وكأننا على موعد مُسبَقٍ ومعرفة قديمة... كنتُ أصغي للكنته الدواخلية أكثر من إنصاتي لموضوع حديثه، ألتقط الاختلافات الطفيفة بينها وبين لهجة العاصمة، مخارج بعض الأصوات، نغمة اللفظة وبعض المفردات الجديدة، أكتشف ذلك وأستمتع به... كان عليٌّ أوَّلَ شخص أقابله من مدن ضواحي العاصمة في حينها.

تحدَّثنا عن جمال المعرض، عن النظام الجديد الذي تُقبل عليه البلاد، كنَّا متفائِلَيْن، ومُنسَجِمَيْن في أفكارنا، تحدَّثنا عن الكتب التي قرأناها، والكُتَّاب الذين قرأنا لهم وأحببناهم، والذين كرهناهم، حكيت له عن مجال دراستي في معهد المعلِّمات بتخصُّص اللغة العربية، وولعي بالكتابة فلم يُعَقِّب، سألني كيف يمكن أن يقرأ ما أكتب، وبدا سؤاله طلبًا لموعد آخر أكثر منه فضولًا حقيقيًّا لقلمي، لاحَظتُ هذا وأحببتُ مراوغته السريعة، ادَّعيتُ كاذبةً بأني آتي كل يوم من أيام المعرض للتجوُّل بعد إنهاء محاضراتي، واتَّفقنا.

في اليوم التالي وجدته واقفًا ينتظرني أمام بوابة المعرض، بقميص كاكيٍّ وبنطلون قماشيٍّ بُنِّيٍّ فضفاض عند قدميه كموضة حديثة جدًّا تلك الأيام، لم أتعرف عليه في البداية بدون بدلته، ولم أكُن قد حفظت ملامح وجهه تمامًا وقد سهرتُ الليلة السابقة أستجديها ولم أفلح إلَّا في تذكُّر الشيبتين، ولكن ابتسامته كانت بطاقةَ التعريف وإشراقة الدنيا، مُجدَّدًا... ودائمًا.

في هذا اللقاء الثاني تحدَّث هو أكثر مني، ونسي أن يقرأ كتاباتي المتواضعة التي أتيتُ بها إليه بناءً على طلبه الكاذب، عرفتُ عنه تفاصيل ما زادتني إليه إلَّا فضولًا، وتجاهَلتُ تفاصيل أخرى ارتأيتُ أنه من الاستعجال والوقاحة التفكير فيها، كمكان إقامته، مزرعتهم، ومكانته الأثيرة لدى أمِّه وقد بدا هذا واضحًا لكثرة ذكرها، وكونهم أسرة تقليدية معزولة عن المدنيَّة التي تشهدها طرابلس والمدن الكبرى في البلاد، شدَّد عليها كثيرًا وأنا لم أكُن قد استوعبتُ بعدُ ما الذي تعنيه كلمة «تقليدية» بالنسبة إليه، كيف يختلفون عنَّا؟ أثمة اختلافات غير لكنتي الليبية المُختلطة أحيانًا بالسورية؟ كيف يمكن أن يختلف بيت ليبي في دمشق عن بيت ليبي في ليبيا، وأظنُّ أنك ستدرك الفرق بنفسك لاحقًا حين تزور أعمامك وتطَّلِع عن قُربٍ على ما أقصده.

اعتبرتُ وقتها أنه من الوقاحة والاستعجال أن أُمعِن التفكير في تلك الأسئلة أو أن أبحث عن أجوبتها؛ فالرَّجُل لم يعلن صراحةً عن نوع علاقتنا هذه وعن الطريق التي ينبغي لها أن تأخذنا إليه، وكأن ثمة اتفاقًا ضمنيًّا أننا على أعتاب حب كبير، وبأننا مشروع زواج عظيم، ولكنه لم يُصرِّح، وأنا -بالطبع- لم أُلمِّح بالسؤال، منعني الخجل أوَّلًا؛ فالرَّجُل لا بُدَّ أن يكون المبادِرَ في هذا الجانب، ولا أدري إن كان الأمر كذلك في جيلكم! ومنعني الخوف ثانيًا، الخوف من أن يخيفه سؤالي

فيَكُفَّ عن طلب لقاءات مزيدة... انتهت فعاليات المعرض وحين انهمَكتُ أفكِّر في مناورةٍ أسأله بها إن كان هذا لقاؤنا الأخير سبقني ضاحكًا: «حقًّا ما زلتُ لم أقرأ ما تكتبين! أتمانعين زيارتي لك في المعهد بعد تسريحكم؟»، ورقص قلبي طربًا.

كانت لقاءاتنا متروكةً ليوم الخميس، تبدأ عند عتبة باب المعهد بعد خروجي، وبدل أن أعود مباشرة عبر الأزِقَّة الرابطة بين شارع مدرستي وحيّنا، ألفتُ معه دورةً كاملة على طول شارع 24 ديسمبر، وحين نصل لميدان الشهداء نفترق، وأكمل طريقي إلى شارع ميزران حيث منزلنا. إمَّا أن أجده الخميس ينتظرني وإمَّا أن يغيب لعُذرٍ يحكي لي عنه في اللقاء الآخر. غاب مرَّةً أربعة مواعيد متتالية، شهرًا كاملًا، شككتُ فيها إن كان لقاؤنا السابق هو الأخير، اتَّضح لاحقًا بأنه غاب لوفاة والده، وفشلتُ في أول امتحان حقيقي لفهم مشاعره، واسَيتُه بابتذالٍ، ولم أعرف كيف أفعل أكثر، حتى حكيتُ له عن فقداني لأمي قبل عودتنا لليبيا بعامين، وكيف وجدتُ نفسي في مواجهة حزن أبي لا فقط في مواجهة حزني الخاص، وكيف أنقذني هذا، خوفي على أبي من حزنه تغلَّب على حزني، وبِتُّ أتطلَّع لإخراجه منه، وفيما كنتُ أفعل ذلك وبدون وعيٍ تجاوَزتُ الأمر معه واستطعنا الاستمرار في الحياة التي كان لا بُدَّ لها وأن تستمر، وهذا ما ينبغي أن يحصل معه، اتَّخذتُ فجأةً دور الواعظ، ونصَحتُه بالالتفات أكثر لحزن أمِّه، نظرته حين نطَقتُ بذلك لم تكن مفهومة بالنسبة لي حتى تزوَّجنا واكتشفتُ ألَّا حياة في أسرته كانت أغلى من حياته، وبأنه –حتى في وفاة والده– ظلَّت أمُّه تبحث عنه وتنادي عليه خوفًا من أن يقتله حزنه على والده، أتصدِّق! ستسمع من عمِّكَ العجبَ يا آدم عن جدَّتِك محبوبة! لروحها الرحمة.

عدنا نلتقي كل خميس تقريبًا بعد انتهائي من محاضراتي، وامتنعنا نهائيًّا عن اللقاء خلال العطلة بين الفصول الدراسية، كنتُ قَلِقَة إن كان الأمر سيستمر على هذا المنوال، وإلى متى؟ وكيف سأدسُّ الأمر عن أبي أكثر؟ ولكنني صبرتُ، فلقاءاتنا كانت تحمل لي صُررًا مُحمَّلةً بالبهجة التي تعينني على الصبر، قرأ لي على عجالة مرارًا وتساءَلتُ إن كان يقرأ حقًّا؟ إن كان يعجبه ما أكتب حقًّا؟! ولم أعرف يومًا الإجابة، فعليٌّ رجُلٌ كان يبدو بملامح عصِيَّة على التفسير، وكان يبدو أيضًا رجلًا عصيًّا على الحزن.

بعد عامٍ تقريبًا نطق بالجوهرة، أخبرني أنه يحبُّني، قالها بنبرة حنان لم تتكرَّر بعد ذلك، حتى إن صداها ما زال يتردَّد في أذني، وما زلتُ أذوب لهذه الذكرى! وانتابتني حالة ذهول حالت بيني وبين فهم أو استيعاب كل كلمة تلت تلك الكلمة، الموقف كان في قِمَّة الطرافة، فأنا لم أسمعها سابقًا إلا بصوت أمِّي وأبي! سألني إن تقدَّم رسميًّا لخطبتي فهل سأوافق؟ ضحكتُ وأشرق وجهه... سألني: «أتحبِّينني؟»، أراد سماعها فعجزتُ عن تلبية رغبته، هززتُ رأسي موافقة في استحياءٍ وعيني على أحد أزرار قميصه، «انطقيها!»... ولم أفعل إلَّا في ليلة زفافنا...

كُفَّ عن الابتسام يا آدم من فضلك فأنت تُشتِّت تركيزي!

تأجَّل موعد تقَدُّمه بناء على طلبي؛ فقد أردتُ استكمال دراستي بالمعهد التي لم يكن من الممكن –وفق وجهة نظري المخالفة له– أن تحصل مع الزواج، وخيرًا فعلتُ... ولكني تجرَّأتُ بمصارحة والدي، فاجأني برفضه! وهذا ما لم يَكُن في

الحسبان، اعتبرنا موافقة أهالينا تحصيلَ حاصل؛ فأبي لا يرفض طلبًا لي ما لم يكن فيه ضرر... رفض أبي لبُعد مقرِّ الإقامة، ولاحتمال كبير بأن يكون بيت العائلة في المزرعة هو مُستَقرّي ومقامي...

«ماذا عن رغبتك في العمل؟ لماذا تواصلين دراستك إن كنتِ غيرَ مُهتمَّة بالعمل؟! كيف تعيشين في بيت واحد مع أمه وإخوته؟! ماذا إن تزوَّج إخوته كيف ستعيشين مع زوجاتهم إن فعلوا مثله؟! ليس الأمر بسيطًا كما تتوهَّمين والحُبُّ وحده لا يبني بيتًا، فكيف إذا انتفى وجود البيت أصلًا! استقلاليَّتُك يا ابنتي!... ثمَّة نساء يفعلن ذلك، لكن لستِ أنتِ من سيحتمل ذلك بنفس القدر من الرضا والاستسلام... لا، لستِ أنتِ!».

قصة البيت لم تكن لعجزٍ مادِّيٍّ، بل كانت شرطًا تحت الحساب وضعته أُمُّه للكِنَّة المجهولة قبل حتى أن يقرِّر ابنها الزواج؛ لهذا ظلَّ رافضًا لسنواتٍ الإقبالَ عليه، لولا افتتانه بي كما كان يقول... وهذه إشارة أخرى تجاهَلتُها لأجله.

وحدث أن شارك في حرب العبور عام 1973 وكنتُ في عام تخرُّجي، فقدتُ شهيتي للطعام، وقد كنَّا في شهر الصيام؛ فنقص وزني إلى النصف، صُمتُ أيضًا عن الدراسة والحياة برُمَّتها، خوفي كان بعظمة الحدث... وحين عاد... حسنًا ربما سأبدو كبطلة أفلام خرجت للتوِّ من شاشة الأبيض والأسود حين أقول لك بأن الحياة عادت تسري في عروقي... لقد شعرتُ بذلك حرفيًّا، استعدتُ عافيتي واستردَدْتُ لوني فور رؤيتي له على بوَّابة المعهد، ولولا العيب لدفَنتُه في حضني.

راهن أبي على الزمن، وراهنتُ على إصراري برفضي مَن تقدَّموا لي بعد تخرُّجي من الجيران أو معارفهم، رغم التوافُق المنطقي الذي بدا جليًّا مع معظمهم، إن لم أقُل جميعهم... فوافق في نهاية الأمر، ربما على أمل أن يحول عملي الجديد في الصحافة وحماستي لها عن المجازفة بالزواج من عليٍّ، أو على الأقل عن الإقامة مع أسرته، حاول إقناعي بدراسة الأمر معه، اقترح مرة أن يترك لنا بيتنا الواقع في شارع ميزران ويبحث عن إيجار في نفس المنطقة بحيث لا يبتعد عني ولا عن ورشة النجارة الخاصَّة به، ولكنني رفضتُ وقرَّرتُ خوض التجربة، مُراهِنةً على الحب الذي يجمعني بعليٍّ.

غير أن معضلة أخرى واجهتنا بعد تخرُّجي ولين أبي بالخصوص، هي رفض أمِّه القاطع لي، حين عَلِمَت أنني عائدة من المهجر السوري، لم أشعر قبل ذلك بأن في الأمر عيبًا عليَّ إخفاؤه أو الخجل منه، ولكن طفرة الانتماء والوطنية المفاجئة في تلك الآونة دفعَت بالبعض إلى إطلاق الأحكام على كل من أحسُّوا بأنهم -ربَّما- يملكون امتيازًا ما على غيرهم من أبناء البلد، واعتُبِرَت معاصَرَة الاحتلال الإيطالي ومن ثم الانتداب البريطاني مأساة ينبغي أن يكون قد مرَّ بها كل مواطن، كعلامة جودة على وطنيته... «المهاجرون العائدون لم يقاسمونا الشِّدَّة؛ إذًا لا يستحقُّون مُقاسَمَتنا الرخاء»، كان هذا منطق العديد من الناس، أُمُّه من بينهم، أو ربما هذا ما أقنعَت نفسها به وكانت ستكرهني على أيِّ حال!

يوم حصول التظاهرات التي وُصِفَت بأعمال شغب في الجامعات الليبية فيما عُرِف بثورة الطلاب عام 1976، عانَيتُ من عقدة الذنب ومراجعة الذات، مراجعة لكل قناعاتي وأفكاري التي بدأت تتهاوى عامًا بعد عام، وعليٌّ كان من

بينها، تخلَّفتُ عن مواعيد نسَّقنا إليها مسبقًا بتواريخها ومواقيتها؛ لم نكن نملك هاتفًا أرضيًّا، وفقدتُ بوصلة لقائه مُجدَّدًا حين انتَهَت قائمة مواعيدنا... حتى فوجئتُ به صباح أحد الأيام واقفًا على الرصيف المقابل لزقاق حيِّنا، على الشارع الرئيسي، واقفًا إلى بائع سجائر يتبادل معه أطراف الحديث، يُدخِّن ويُمسك بجريدة متظاهرًا بتصفُّحها، سرب فراشات انطلق يتخبَّط في معدتي، وانتفض قلبي، رأيته بعين الشوق أكثر وسامةً ببنطالٍ جينز أزرق، قميص أزرق، وجاكيت جينز بنفس خامة ودرجة لون البنطال... أحببتُ الأزرق مُذ ذلك اليوم، وصار لوني المُفضَّل، وكأني أرى عليَّ للمرة الأولى... لم يكن يَعلَم بعدُ في أيِّ الأزِقَّة بيتنا تحديدًا، لكني خلال حديثٍ عابر خبَّرتُه عن دكاكين بعينها تُجاوِرنا، ولم أتوقَّع أن يلتقط عنواني بهذه الخِفَّة، دون حتى أن يبدي اهتمامًا أو تركيزًا في ساعتها.

تظاهرتُ بأني لم أره وانطلقتُ نحو وجهتي، كنتُ قاصِدةً أحد محلَّات العطارة، تمنَّيتُ ألَّا يراني، أمنية كذَّبها قلبي، وانصاعت له قدماي فأبطأتا سيرهما، وأنا لست من النوع الذي يسير متبخترًا، ولكني فعلتها... ووجدته يمشي إلى جواري بعد لحظات، دون أن ينبس بكلمة... دخلتُ دكان العطَّار فيما ظلَّ هو واقفًا في الخارج يتأمَّلني مواصلًا تدخينه والجريدة تحت إبطه، اشتريتُ بعض التوابل والمكسَّرات، وحين خرجتُ سألني: «شن غداكم؟»، لم أرُدَّ عليه، رغم أن صوته تكفَّل بإفقادي ذاكرتي للحظات، نسيت لِمَ تجاهَلتُه طيلة الشهور الأخيرة؟ وكيف هان عليَّ فعل هذا بنا؟! وبدل عودتي للبيت وجدتُ نفسي أمضي نحو الكورنيش القديم، ظلَّ يسألني ولا أجيبه، واصل سيره صامتًا ولا أدري كم استمرَّ الأمر، إلا أني قرَّرتُ الوقوف في نقطة ما بالقرب من الميناء، اتَّكأتُ على حافة سور الكورنيش القديم، ونطقتُ بأغرب فكرة خطَرَت عليَّ وقتها: «ربما أعود إلى سوريا»... لم يهلع، لم تبدُ عليه أمارات الاستغراب أو الغضب، اكتفى برمي سيجارته، دهسها بطرف قدمه وأطرق متأمِّلًا البحر والميناء المكتظ بالصيادين والعُمَّال، وكأني لم أنطق بكلمة... مضى وقتٌ ظنَنتُه طويلًا لأني هَمَمتُ بالعودة للبيت فنطق...

«لماذا؟ هل هناك موضوع زواج في انتظارك؟».

اغتظتُ لأن فكرتي الغريبة أُوِّلَت بهذا الشكل، لِمَ أرتكب الحماقات! حاولتُ إزاحة اضطرابي وارتباكي وشوقي جانبًا، حاولتُ ترجمة ما شعرتُ به حرفيًّا خلال الشهور الماضية...

«لستُ أدري إن كانت الإقامة هنا تريحني بعد الآن... يبدو وكأننا نمشي بالعكس... أنا منذ أبريل الماضي أعاني من حالة غثيان كلَّما تذكَّرتُ كم كنت ساذجة في أفكاري السياسية والوطنية، كيف تصوَّرتُ الأمور بهذه البساطة، وكيف تخيَّلتُ أن ما ينتظرنا في هذه البلاد حياة طوباوية لا شرَّ فيها... لا ضغائن ولا كراهية ولا دسائس... بِتُّ أراجع نفسي حيال ما اعتبرناها بديهيات، هل حقًّا ثمة ديمقراطية وحرية وعدالة اجتماعية وكرامة؟ أهي لعنة الفوضى أصابت هذه المنطقة التي تتوسَّط العالم كي يلتصق بها البؤس التصاقًا؟ أهي لعنة حالت بين أن ينمو شيء في بلادنا غير الموت؟ الموت وحده ينمو ويتَّخِذ أشكالًا وألوانًا شتَّى! ما الذي اختلف بين الماضي والحاضر غير الأسماء؟ أسماء الأشخاص والأماكن والحركات، وكلها لا تُبشِّر إلا بالمزيد من الفوضى!... ليس الأمر شخصيًّا، أنا فقط محتاجة لمراجعة نفسي، أَنْجَذَبْتُ إليك أم إلى

بدلتك؟... أتعجبني حقًّا أم أن ما يعجبني هو فكرة؟ فكرة تدور حول النهضة والتنمية والوحدة العربية والديمقراطية والنمو المعرفي والاقتصادي والحرية الشاملة! فكرة ارتبَطَت بالبدلة العسكرية التي خلَّصَتنا من أنظمة رَجعيَّة... أكانت حقًّا أنظمة رجعية؟ هل الديمقراطية حقًّا مُجدِية؟ تصوَّر أني بدأت أنسى لِمَ باركنا ثورة الضباط، ولِمَ هَلَّلنا لهم!... أعني لكم...».

ربما هذا فقط ما قلته، ربما قلت أكثر، لم أعُد أذكر... أذكر فقط بأني لم أسكت إلا حين أجبرتني الغصَّة في حلقي على السكوت... وانتظرته ينطق بكلمة واحدة كي ننتهي من كل هذا، كي نعود كما كنَّا...

«وما ذنبي في كل ما تقولين؟ ما ذنبك؟! لا تأخذيني بجريرة أحدهم، كلٌّ لا يُمثِّل إلا نفسه وقناعاته، ونحن وإن اتَّفقنا في أمور عدة وتواءمنا في أفكار شتى، تبقى لكلٍّ منَّا بصمة تختلف عن الآخر... نحن لم نقبل بأن تحكمنا زُمرةٌ فاسدة، تسيء إلى سيادة البلاد، وبالطبع هذا لا يعني قبولنا بأن يُساء لسيادة المواطن وحريته!...

اسمعي، لا شيء واضح، أتفهمين؟! قد لا تكون الأمور في حقيقتها كما نشعر أو نرى ولا حتى كما نسمع... أنا لا أبرِّر، ولكني تعلَّمتُ خلال فترة وجيزة من احتكاكي ببعض الشخصيات البارزة أن ما خفيَ عنا أكبر بكثير مما يبدو... وأعلم... أعلم أن هذا قد يعني بأن ما يحصل حقيقة أسوأ ممَّا نظن، ولكن من الممكن أيضًا ألَّا يكون كذلك!

دعينا نترك هذه الأمور لأصحاب الشأن، دعينا نلتفت لمستقبلنا نحن بعيدًا عن كل تلك التجاذُبات... ما شأنها بيني وبينك وكيف تجد مكانها فيما يربطنا؟! السياسة لعبة الكذَّابين... ما حدث في عام 69 ليس سياسةً على الأقل بالنسبة لي، كان ثمَّة ظُلم للعباد والبلاد وساهَمتُ في إزاحته... ليس ذنبي إن وُلد بعده ظُلمٌ جديد بشكل آخر واسم آخر... ليس ذنبي ولا ذنبك، آمَنَّا بقضايا بعينها وسنؤمن بها، وما عدا ذلك يُترك للأجيال اللاحقة، هي مَن ستكشف الحقائق، وهي مَن ستحاسب إمَّا بالدم أو بالسِّلم... دعينا نفكر فقط في الكيفية التي سنبقى بها في منأى عن كل هذه المهاترات... أقسم لك بألَّا شأن لي بكل ما حصل بعد 69، أقسم لك بأني -مثلك ومثل أي مواطن ليبي- معترض على بعض ما يحدث، وينتابني الشك أحيانًا في أن ما هو آتٍ قد يكون أسوأ، وهذا بالتحديد ما يدفعني لطلب السلام والسكينة... معك... دعي عنك كل هذا الهراء»...

تكلَّم بجدية خالية من الاستعطاف أو الرجاء، وكأنه يلقي عليَّ درسًا، هذه كانت طبيعته، وطبعًا وافقته على الفور؛ فهذا ما كنت أنتظر سماعه منه... يومها وبعد عودتي للبيت بساعة واحدة، فوجِئتُ به يدقُّ بابنا ويطلب مقابلة والدي، هل خشي حقًّا من فكرتي الارتجالية بالعودة إلى سوريا؟ لم أعرف ولم أفكر وقتها، كانت المشاعر هي سيدة الموقف، وسيدة اللحظة. قابَلَ أبي وطلب الزواج مني، حكى عن مهنته ورُتبَته العسكرية، عن خلفيَّته الاجتماعية وبعضًا من تاريخ أُسرَته وعدد أفرادها... أراد خطبةً مفتوحة للتعرُّف علينا عن قُرب، تحَجَّج بأن ظروفًا تمنعه من إحضار والدته، ولكنها آتية لا محالة حين ينوي البدء بالتحضير للزفاف، من بعد موافقة أبي بالطبع... طلب منه أبي -كما تستوجب العادات- مُهلةً ليأخذ رأيي -رغم أنه يعرف جوابي- وليسأل عنه، واتَّفقا على أن يعيد عليٌّ زيارته القادمة بعد أسبوعين رُفقة أخيه الأكبر

عُمر... ومضت الزيارة بشكل عاديٍّ سطحيٍّ، بعكس ما كان يحدث في جوفي... تلك الليلة بكيتُ كثيرًا ولم أنم، ولا أزال غير قادرة على تفسير بكائي، أمِن سعادةٍ أم من خوفٍ أم نبوءة؟!

حذَّرني أبي من الخروج للضيفين عند زيارتهما لنا بعد أسبوعين ورضختُ لطلبه رغم شوقي الشديد لرؤية عليٍّ، وفضولي لرؤية أخيه عُمر، كان أبي على دراية أكبر مني بما تقتضيه البروتوكولات الاجتماعية في بلادنا التي ما فتئتُ أشعر بين الحين والآخر بغُربتي فيها... وبالطبع وافق أبي، قرؤوا الفاتحة بِنِيَّة مُبارَكة هذا الزواج والتوفيق فيه... كنتُ واقفة أتنصَّتُ عليهم وقلبي ينبض في معدتي... بعد خروجهما سألني أبي: «ألا تعرف الابتسامة طريقًا لشفتي هذا الرجل، أم أن شاربه الكثَّ هو ما يحول بيننا وبينها؟ لماذا ليس كأخيه عمر!»، وضحك، وكأنما ليخفِّف وطأة انتقاده لعليٍّ أمامي أنا المتحيِّزة له بالكامل... كادني قليلًا أن يجد أبي عمر –الذي لم أكن قد تعرَّفت إليه بعد– أكثرَ لُطفًا ودماثة من أخيه، زوجي الموعود.

واستغرق الأمر عامين ونصفًا ليُقنِع أمَّه، عامان ونصف بدأت تختفي فيهما احتمالية زواجنا بالنسبة لي، ولم أتصوَّر قبلًا كيف يمكن لأمٍّ أن تعتقد بملكيَّتها لقرارات أبنائها بهذا الشكل؟! وكيف لقلب الأم أن يحمل كل هذا العناد والأنانية؟! ولماذا تتصوَّر أن مباركتها أو لعنتها للزواج هي صكُّ مغفرة أو لعنة من الله؟! كنت حين أتذكَّر كيف أني استطعت بهدوءٍ إقناعَ أبي وأقارن حالي بحال عليٍّ أتساءل: أأنا أكثر رجولةً منه، أم أن أُمَّه أكثر تعلُّقًا به من تعلُّق والدي بي؟! ولكني بعد تفكير وصلت لنتيجة مفادها ألَّا رجولة ولا تَعلُّقًا في الأمر قدر كونه اختلاف ثقافات وعادات، واختلاف عقليات... كيف يخرج عليٌّ، الرجل المتفتِّح الرائع هذا من بيت كذاك؟! صراحةً هكذا كنت أفكر.

أخبرني عليٌّ بأنه لا ينبغي لأبي الجلوس معي عند زيارة أمه بعد قبولها على مَضَض: «نحن أسرة محافظة؛ لا تجلس النساء مع الرجال الأغراب عنها في غرفة واحدة»، قبولها انتُزع بسبب سياسة طفولية اضطر عليٌّ لانتهاجها إذ أضرب عن الطعام حتى أقسَمَت أُمُّه بأنه مسحور، بأن «السورية» التي هي أنا سحَرَته! أسبوعًا واحدًا تكفَّل بإخضاعها مُراهِنَةً على تطفيشي ودفعي للرفض بناء على ما نَوَت فِعلَه بي، هذا ما اكتشفته لاحقًا، ولكني –ربما لعِنادٍ منِّي– لم أبالِ، إلا حين بدأ عليٌّ في الرضوخ والانحياز لصفِّها درءًا للَّعنات ولسيول الدعوات بالغضب والجحيم.

سألته ومَن ينبغي عليه الجلوس معي إذًا؟! فأنا يتيمة الأم ولا خالات أو عمَّات لي هنا! واتَّفقنا على الاستعانة بجارتنا، وهنا، بدأت سلسلة المعايرة المغلَّفة بالاستغراب وادِّعاء الشفقة من طرف أمه؛ ما أحرج جارتنا التي ما جاءت إلا جبرًا بخاطري وخاطر أبي. كان لقائي الأول بها هو الأسوأ، ارتعبتُ منها، زاد ارتعاشي حين حذَّرَتني جارتنا عقب انتهاء الزيارة «الأفضل لك تجنُّب هذا الزواج يا ابنتي... لستِ أهلًا لتحمُّل هذه الأم... هي لا تريدك لابنها وهذا واضحٌ مُشعٌّ كالشمس»، شكرتها وطلبتُ منها ألَّا تخبر أبي بمدى سوء المقابلة، وأسلوب الضيفة المستفزِّ، ونظراتها التي قلَّبتها في جسدي وفي أرجاء بيتنا بطريقة تتعمَّد فيها إبداء اشمئزازها للَّا شيء تحديدًا... أدرَكَت جارتنا الطيبة ألَّا مجالَ لردعي عن هذا الزواج، هزَّت رأسها وحَوْقَلَت ثم انصرَفَت راجيةً مني ألَّا أستحي في طلب أي مساعدة لتجهيز نفسي...

لم أكن أعلم ما الذي ينبغي عليَّ تجهيزه بصفتي عروسًا؛ إذ ليس لديَّ أخوات، رجَوتُ أخي أن يأتي رفقة زوجته من سوريا لحضور الحفل البسيط الذي ننوي إقامته على سطح بيتنا فوافق، أعانتني زوجته وقدَّمَت لي ما ينبغي للأم أن تُقدِّمه لابنتها من نُصحٍ وتوعية، ولكني احترتُ واحتارت معي في الأمور الملموسة التي ينبغي علي تجهيزها، فنحن لا نعلم كيف هو شكل الخصوصية حين تكون الإقامة في بيت العائلة؟! هذا إن كان ثمَّة خصوصيَّة من الأساس!

حسنًا، واكتشفتُ ألَّا خصوصية في الزواج منه إلا غرفة نومنا ليلًا، وليلًا فقط!... اكتفيتُ بهذا المقدار في البداية، ولكني بدأت أكتشف عليًّا آخر غير الذي أحبَبتُه. قليل الكلام، مطيع بشكل مستفزٍّ، سلبيٌّ، وكأنه قرَّر أن يرتدي بين أهله قناعًا، أو ربما كان يرتدي القناع معي أنا منذ البداية! حقًّا لم يكن بإمكاني تمييز ما يحصل... ازداد الأمر تعقيدًا حين تزوَّج عمر بعد زواجنا بعام واحدٍ... لا أظنُّ أنني بحاجة لأحكي لك بأن استقبال سِلفَتي (زوجة عمر) كان مناقضًا تمامًا لوجه استقبالي... كذلك معاملتهم لها... ليتني وجدتُ فيها الأخت أو الصديقة لهان كل ذلك، ولكن كان ثمَّة اتفاق ضِمنيٌّ بنبذي عاطفيًّا، ودهسي عمليًّا بشكلٍ يوميٍّ! لم أغفر لهم... ولا أظن أني سأفعل يومًا... ولن أخوض في مزيد من التفاصيل عن أعمام ابنتي أو زوجاتهم أمامها؛ فلا حاجة لها لتحمل أي ضغينة إضافية في أمورٍ عفا عنها الزمن، وليس من مصلحة أحد إثارتها مجدَّدًا.

لم أستطع مواصلة العمل في عمودي الأسبوعي لبُعد المكان أوَّلًا، ولرفض حماتي ثانيًا... ولم أجد من عليٍّ كلمةً تواسيني فقداني التدريجي لذاتي، أو تُفسِّر لي استسلامه التام لقراراتها، أو تشرح لِمَ تُقرِّر هي كل تفاصيل حياتنا؟!... بدا الأمر برُمَّتِه سرياليًّا، وخُيِّل إليَّ بأني في كابوسٍ لا بُدَّ وأن أستيقظ منه، غير أني حين أدركتُ واقعية الأمر كنتُ حُبلى بحسناء، مع احتمالية ترَمُّلي حين مضى عليٍّ لحرب تشاد الأولى في 1980، قبل ولادة حسناء ببضعة أشهر... ووجدتُ في حملي ما يواسيني؛ ففي النهاية، ثمة طفل سيأتي لهذا البيت، وسيكون مُؤنِسي في وحدتي التي عرفتها هناك، والأهم من ذلك أن هذا الطفل –ولا شك– سيكون في صَفِّي أنا، أنا أمُّه... وخاب ظنِّي بعد مُضيِّ أربعين يومًا من ولادة حسناء.

سمَّاها أبي حسناء، قَبِل عليٌّ الاسم برضا وقد كان حديثَ عهدٍ بمحنة ضياعه في صحراء تشاد قبل عثوره على دورية ليبية أنقَذَت حياته في رمقه الأخير، عائدًا منتصرًا مزهوًّا بما حقَّقه الجيش الليبي من بسط سيطرة ونفوذ على النصف الشمالي من الأراضي التشادية... وفي الحقيقة، لا أذكر أني فَرِحتُ بعودته! كان الغضب يغمرني والحقد يعميني!

فيما أثار أمرُ تسمية حسناء حفيظةَ أمِّه وغيرتها؛ إذ كان ينبغي للبنت أن تُسمَّى تَيمُّنًا بجدَّتها، وفي لفتةٍ استغربتُها من عليٍّ أخبر أمه بأن ما حصل قد حصل، وأن البنت سُجِّلَت في السجلِّ المدني بهذا الاسم، ولم يكن ذلك صحيحًا، اعتبرتُ موقفه هديَّةً ربما أراد بها إخباري بأنه باقٍ على حُبِّنا الأول؛ إذ اختفَت تدريجيًّا حواراتنا في ساعات لقائنا بالليل؛ لأني غالبًا أكون مُنهَكةً خائرة القوى، مُدبِرَةً غير مُقبِلَة على أي نوع من أنواع التواصُل أو الحوار.

وبعد أن انتُزِعَت ابنتي من فراشي إلى فراش أمِّه، أدركتُ أن الرضوخ للاسم لم يكن إلا مساومة، من جهتي الاسم، ومن جهته العناية والتدليل، والتربية... الحق، لقد تعلَّقَت العجوزُ بحسناء؛ إذ لم تُرزق ببنت في حياتها، أحبَّتها رغم شبهها

الكبير بأبي، صهباء لا تُشبِهني ولا تشبه والدها ولا أيًّا من أقاربها، فقط جدها... بالإضافة إلى أن تلك الأم لم تتوانَ عن تذكيري بأن تربية البنت ينبغي ألَّا تُحال لامرأة عنيدة سافرةٍ مثلي، هذا بعد عجزها وعجز عُمر عن إلباسي طرحة الحجاب عنوة! فكان سفوري حُجَّة لا غير؛ إذ حاوَلتُ مرَّةً إيهامها برغبتي في الحجاب ولم ينجح الأمر، تحجَّجَت بأني تربَّيتُ تربية «سايبة»، وإلا لَمَا دخلتُ في علاقة «حرام» مع ابنها... أجل، فالحب في مفهومها مُحرَّم على النساء، أمَّا الرجل يحب كما يشاء، هي لم تلُم يومًا ابنها على هذه العلاقة المحرَّمة أو تأمره بالاستغفار ألف مرة في اليوم كما كانت تُلقِّنني آناء الليل وأطراف النهار...

الخلاصة أن قرارها الصادر بدون حقِّ استئنافٍ بتربية حسناء عوضًا عني قدرٌ لم أعرف كيف الخلاص منه... كنتُ لا أستفرد بابنتي طوال سنواتها السبع التي قضيناها في بيت جدَّتها إلا خلال زياراتي لأبي؛ لهذا كنت أطيل زياراتي عنده، فنمكث أسبوعًا، ثم جعلته أسبوعين، ولولا طنينها على عليٍّ ربما مكثتُ أكثر... في تلك السنوات وقبل حرب تشاد الثانية، نسيتُ هموم البلاد وبتُّ أذكر انفعالاتي وأفكاري السياسية السابقة بتندُّرٍ بيني وبين نفسي وأتساءل: أَمِن فراغٍ كنتُ مُهتمَّةً بالشأن العام، بالحرية والنهضة والعدالة الاجتماعية والتنمية و... و... و... كنتُ أضحك على نفسي كالمجنونة! تلك السنوات لا أدري كيف مضت، وفيمَ مضت... وما زالت تبدو لي حلقة كنتُ أدور فيها كفأر تجارب أبيض بائس عنيد... كل يوم هو نفس اليوم، اللهم إلا حين أخرج من الحلقة زائرة لوالدي ثم لا ألبث أن أعود إليها... اكتشفتُ أن أهم سنوات عمري تذوب حين جرَّبتُ رسم عيني مرَّةً بالكحل فتعثَّر كحلي بتجاعيد جفني بدل انزلاقه المعتاد، أمسح وأعيد، فينتهي بشكل غصن شائك! عرفتُ يومها ألَّا شيء سينتظرني، وأني ميتة مع وقف التنفيذ... بكيتُ كمن اكتشف للتو بأنه حكم على نفسه بالسجن المؤبد، بكيت بشدة، وأذكر تمامًا كيف اختلط غصن الكحل الشائك أعلى وأسفل جفني بدموعي، وكيف كرهتُ بعدها الكحل...

لم أحكِ لأبي عمَّا قاسيته فيما يفترض أن يكون عشَّ الزوجية السعيد، خوفًا ومكابرة...

لقد كنتُ أشتاق لابنتي، وتوقَّفتُ عن الاشتياق لأبيها، أظن أن شوقي لابنتي كان كفيلًا بقتل أي مشاعر تجاه والدها، وأظنُّ بأنني توقَّفتُ عن حبه يوم انتزعوها من مخدعي.

أوه! هل يبدو حسنائي ما أقوله قاسيًا عليك إلى هذا الحد؟! كان يجدر بي لقاء آدم بعيدًا عنك... كان عليك تفهُّم رغبتي في الانفراد به...

أرأيتَ يا آدم! لهذا السبب، أبقيت الأمر سرًّا عليها عمري كله... دموعها أغلى من إنصافي... دموعها أغلى من تبرئة صورتي أمامها، أغلى حتى من تبرير أسباب تجاهلي لرسالة والدها، دموعها أغلى من الحقيقة التي كان ينبغي أن يعلمها الجميع...

استقبلتُ خبر استشهاد عليٍّ في حرب تشاد الثانية برحابة صدر، نعم كنت معدومة المشاعر إلى هذا الحدِّ، وبقيتُ كذلك لسنوات لاحقة، اهتياج مشاعري في حينها ورغبتي في التحرُّر من ذاك الفخِّ هوَّن عليَّ إجهاضي في الحمل الذي تركني عليه عليٌّ قبل لحاقه بالجبهة، زِدْ على ذلك خوفي من حرماني من حسناء، فعَلَت محبوبة كل ما جاد به دهاؤها وخبرتها للاحتفاظ بحسناء، ولكنني أبيتُ كلَّ حلولهم، وكان القانون في صفِّي؛ فحضانة ابنتي من حقِّي طالما لن أتزوج ثانية...

وازددتُ حنقًا عليه حين علمتُ في وصية أبي بأن عليًّا حيٌّ يُرزقَ، وبأنه طلب ترحيلي وابنتي (والابن الذي ظنَّ أنه وُلد) إليه، وبأنه لم يفعل شيئًا إلا إرسال هذه الرسالة اليتيمة، هاك خُذها لكتابك...

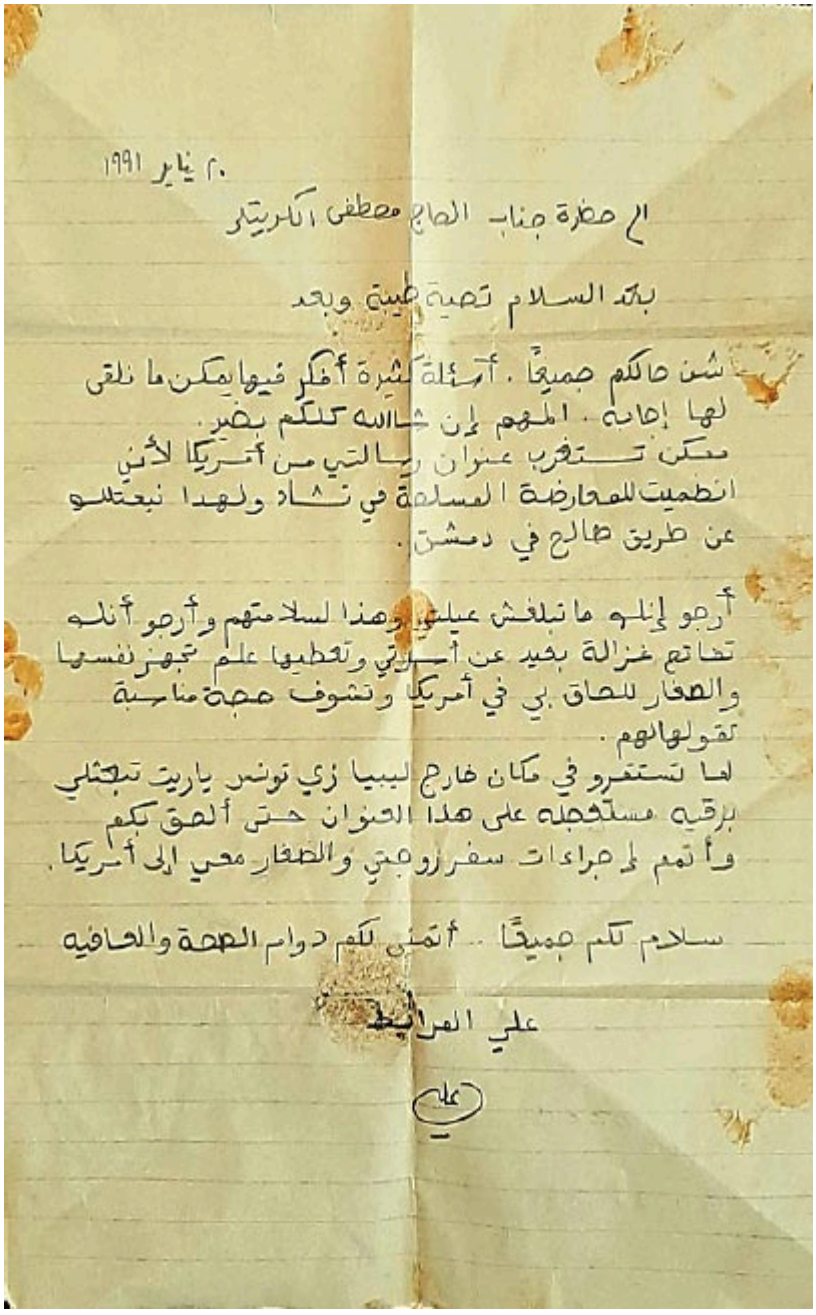

٢٠ يناير ١٩٩١

الى حضرة جناب الحاج مصطفى الكريتلي

بعد السلام تحية طيبة وبعد

شن حالكم جميعًا . أسئلة كثيرة أفكر فيها يمكن ما نلقى
لها إجابة . المهم إن شاالله كلكم بخير .
ممكن تستغرب عنوان رسالتي من أمريكا لأني
انضميت للمعارضة المسلحة في تشاد ولهذا نبعتلو
عن طريق صالح في دمشق .

أرجو إنكو ما تبلغش عيلتي وهذا لسلامتهم وأرجو أنكم
تخاتم غزالة بعيد عن أسرتي وتعطيها علم تجهز نفسها
والصغار للحاق بي في أمريكا وتشوف حجة مناسبة
تقولها لهم .
لما تستقرو في مكان خارج ليبيا زي تونس يا ريت تبعتلي
برقية مستعجلة على هذا العنوان حتى ألحق بكم
وأتمم لم اجراءات سفر زوجتي والصغار معي الى أمريكا .

سلام لكم جميعًا . أتمنى لكم دوام الصحة والعافية

علي العرابط

علي

ازددتُ غضبًا حين لم أرَ منه ردَّ فِعلٍ على كذبة أبي بزواجي من آخر لاعتقادنا بترمُّلي! خاف أبي عليَّ وخاف من فقداني مرَّةً أخرى فكذب عليه برسالة أخبره فيها بزواجي بعد إتمام العدَّة مباشرة... كيف استقبلها؟! هل بالبرود الذي كُتِبَت به هذه الرسالة؟! هل كان قد تعرَّف على أُمِّكَ وقتها؟! اعذرني؛ فهذه الأسئلة ظلَّت تنغز صدري كالإبر... ففي خضمِّ كرهي له نسيت أن أسأل نفسي: أتراه هو أيضًا توقَّف عن حبي؟! أتراه كَرِهَني كما فعلت؟ وهل كرهته حقًّا؟

تخبرني الآن، في هذا العمر، وفي هذا التوقيت، بأنه قُتل برصاصة في منتصف جبينه حين كان خارجًا من مكتب الحجوزات، وأنه كان ينوي العودة لأجلي ولأجل حسناء تاركًا إيَّاكَ وأمَّكَ بعد أن عرف بكذبة أبي وتأكَّد منها بطريقة ما! هل بالَغتُ إذًا في تحامُلي عليه كل تلك السنوات؟!

حسنًا، آدم... لقد تأخَّر الوقت على الندم... نَدَمٌ أكبر حتى من إشفاقي على ما آلت إليه الأمور معك ووالدتك... متأسفة جدًّا لكل ما حصل... لا يمكنني الامتناع عن لوم نفسي... ربما لم يكن عليٌّ هو السبب في كل ما جرى، ربما لم تكن أمَّه... ربما كنتُ أنا السبب... أنا وحسبُ.

---

* قصيدة «ليل وقلب»، فدوى طوقان

الحرب

«هناك وهنا يا صديقي توماس قبيلة من الرافضين لكتابي الذي لم يُنجز بعد!

ينتابني بعض القلق أيضًا، ويبدو لي أني تأثرتُ بهم إلى حدٍّ ما، فقد عُدَّ أبي شخصية هامَّة لدى السابقين واللاحقين أيضًا، وهذا الكتاب سيجعل منه شخصية مكروهة بعد أن كان بطلًا، عند الطرفين... سيكرهه (الثوريون والثوار*) بعد أن كان رمزًا للموطنية الراسخة حالما يكتشفون كُفرَه بالثورات كلها، و سيعتبرونه انتهازيًّا رَكِبَ موجة المعارضة لمصالح ذاتية، وسيعتبرونه أفَّاكًا معتديًا أثيمًا... لا يمكنني على الدوام التصرُّف بديكارتية مُحنَّكة حتى وإن كان الأمر كذلك في دراستي للحقوق! يَصعُب عليَّ أحيانًا التركيز فيما ينبغي تصفيته من ذهني والتخلُّص منه، وتبدو لي نفسي هذه الأيام كبالوعة تشفط كل ما يمرُّ فوقها! لقد أرهقتني عملية تفريغ وترجمة شهادة بَرَكة، أرهقتْني نفسيًّا، وكان عليَّ المرور عبر نفق الأشباح هذا مرتين!».

سنوات والدي السبع التي قضاها منتقلًا من حرب إلى أَسْرٍ، ثم معارضة مُسلَّحة ومنها إلى أمريكا، كانت سنوات حزن حقيقي، الحزن الذي ظنَّت الخالة غزالة بأن والدي كان مُحصَّنًا ضدَّه، وكأنه ادَّخره لهذا الزمن، زمن محاذاة الموت الذي ظلَّ يتملَّص بين أصابعه مُذ لفظه طفلًا رضيعًا، حتى تمكَّن منه في ديسمبر 1994. غرق في حزنه دفعة واحدة، حُزن ثلاثة وأربعين عامًا قبل حرب تشاد أتى دفعةً واحدة بعدها! تحرَّر من كل الأفكار والقضايا الكُبرى مُلتفتًا لما نعتبرها قضايا شخصية صُغرى: نفسه وأسرته...

وبرَكة، رغم كل ما عرفه عن والدي وما شهده معه ظلَّ يحمل له أكبر تعظيم واحترام، ودونَ البقية (أمي، عمي، غزالة وحتى حسناء) وحده كان شاهدًا على ضعف عليٍّ المرابط، كان شاهدًا على حيرته وغضبه وجنونه، وحزنه العظيم، وحده أحَبَّه رغم هذا، بل ربما لأجل هذا بالذات... محبَّته لوالدي زحفت نحوي تدريجيًّا منذ ولادتي، صحيح أن جدِّي تكفَّل بتربيتي وتعليمي، ولكن برَكة بالنسبة لي كان أبًا ثانيًا وصديقًا، صديق مُقرَّب، اعتدتُ أن أناديه باسمه دون كُنية عمِّي لفترة طويلة خلال طفولتي، وما زلتُ أفعل ذلك حين أمازحه بين الحين والآخر، اختلف الأمر بعد زواجه (الذي خفتُ أن يُنسيه إيَّاي) وبعد أن رُزِقَ بعليٍّ الصغير، صرتُ أناديه بكُنيَة «العم برَكة» بين الحين والآخر، خاصَّةً أمام أبنائه، وكأني انتبهتُ فجأة لفارق السِّنّ بيننا؛ إذ يفصلنا اثنان وعشرون عامًا... برَكة في المسافة العُمْريَّة الفاصلة بيني وبين والدي؛ ولذلك استطاع استيعاب والدي، واستطاع استيعابي أيضًا، ربما لا ينتصفنا زمنيًّا فحسب، بل عاطفيًّا أيضًا... لزمه الأمر تَرامِسَ* من الشاي الأخضر رفيقه الأول في كل جلساته كي يبوح لي بما أمكن له من الهدوء وسعة الصدر بكل ما جرى، علاقته بالشاي الأخضر عجيبة جدًّا، ولا أفهم كيف لمشروبٍ ارتبَطَ في وجدانه بذكريات سيئة أن يتحوَّل إلى مشروب

مُفضَّل! يقول بأن الشاي الأخضر جمعه بوالدي لا فقط تحت الأَسْر، بل حتى بعد مجيئهم إلى أميركا؛ لهذا فهو يستحضر صديقه المقرَّب عبر أكواب الشاي المتعاقبة! تذكَّرتُه كثيرًا مع أكواب الشاي الأخضر (والأحمر أيضًا) الصغيرة الرشيقة المخصَّرة ذات الحواف المذهَّبة التي أُتخِمتُ بها في بيت عمي عُمر. كانت تأتيني بها سارة واضعةً إلى جوارها صحونًا زجاجيَّةً ملوَّنة تزدهر بالمقروض والغُرَيِّبة والكعك المالح والحُلو، وأصناف أخرى من الحلويات «الزِّمنيَّة*»... لذيذة، كسارة التي لم ولن تسنح الفرصة لتذوُّقها... آه من سارة المراوغة... المزعجة... الساحرة والمتعصِّبة... أقول لها بأنني أستغرب كيف أحببتُها بهذه السرعة، تجيبني «حتى أنا»، أراوغها وأقول «كم أحبُّكِ!»، فتصمت وتندسُّ في قوقعتها متظاهِرةً بأنها نامت قبل قراءة آخر سطر.

ما زلتُ أرى حركة حاجبيها وتبدُّل ملامحها وأسمع صوتها كلما أعدتُ قراءة ما كان بيننا، وأظنُّ أنها نَسِيَتني بسرعة، نَسِيَتني تمامًا كضبابٍ تلاشى في غفلة من الأفق... نَسِيَتني منذ أخبرتها بكتابي هذا.

سأنتهي قريبًا من ترجمة أحداث الكتاب بناءً على الشهادات التي فرَّغتُها وما زلتُ أفكِّر فيها، هي وكل مَن رحَّبوا بي وأحبُّوني، هل كتابي خيانة لهم؟ هل سيؤذيهم حقًّا أم أنهم يتوهَّمون ذلك؟

توقَّفَت الشمس عن إيجاد مسلكٍ لها بين الغيوم والأبنية الشاهقة، يبدو الجوُّ كئيبًا، ولا أدري أهو الشتاء ما يغطِّيني بعباءة الاكتئاب والإحباط أم أنا مَن أفعل ذلك بنفسي؟ أخشى أن حجم الضغط الذي أعانيه بدأ يطفو على تعامُلاتي مع روَّاد المكتبة من الطلبة والباحثين والأساتذة...

هل يعلم العم عُمر كم تُحبه ابنته وتخشى على صورته؟ هل علم والدي يقينًا قبل موته بحجم الحُبِّ الحقيقي الذي حمَلَته له غزالة وأمي فاطمة وصديقه بَرَكة؟

نحن عادةً لا نبوح بحبِّنا إلا أمام شواهد القبور... الموتُ لا يُلقي بالًا لحماقاتنا ولا ينتظرنا حتى نستيقظ منها، لا ينتظرنا حتى نُصرِّح بحبِّنا لمن أحببناهم قبل أن يأخذهم منَّا، الموت لا ينتظر الحمقى... ما مناسبة هذا الكلام؟ أظن أني ما زلتُ متأثرًا برحيل جَدِّي دون توديعه وداعًا يليق بالسنوات التي أفناها في تربيتي وتعليمي... رغم أن صوتًا ما بداخلي يخبرني أن هذا ما كان يجب أن يحدث؛ فالأقدار تدور، ونحن لا نملك الشفاعة لأحبابنا تجاه ماضيهم.

بَرْكة: سراب النصر
قاعدة وادي الدوم 1987

ابتلعتُ مقدارًا لا بأس به من الرمال في ظهيرة تيهنا في الصحراء قبل الأَسْر بساعات قليلة، واجَهَتنا عاصفة رملية عابرة، لو كنَّا في قاعدة وادي الدوم لتذمَّرنا من اختيارها هذا التوقيت بالذات، والشمس عمودية تُصْلي رؤوسنا، ولكن في ظروف هروبنا القاسية، يبدو التذمُّر ترفًا لا معنى له.

ثم إنني لم أكن أدري بأن أضعاف تلك الكمية من التراب ستدخل أفواهنا عنوة لاحقًا!

صباح ذلك اليوم، هربنا مهزومين من قاعدة وادي الدوم. خسرناها فجر 23 مارس 1987، وكانت المعركة قد بدأت من اليوم السابق في الخامسة عصرًا تقريبًا، ثم هدَأت في الليل وعادت فجر اليوم التالي... مَن استطاع الهرب فعل، ولكنَّ بعضنا أبدى مقاوَمةً باسِلةً في غير محلِّها، وقُتل في موقعه، كانوا إمَّا عسكريين مخضرمين مأخوذين بشرفهم العسكري، أو طلبة مدارس لا يتجاوز أكبرهم السابعة عشرة –مثلي– مأمورين، ظانِّين أن أمنهم وسلامتهم في طاعة الأوامر. لم نفهم كيف تعرَّف التشاديُّون إلى المدخل الرئيسي الملتوي والخالي من الألغام، بعد سنوات طويلة عرفنا أن آثار أقدامنا وسياراتنا على الرمال هي التي وشت بالمدخل الآمِن، آثارنا نحن، نعم هكذا وبكل بساطة!

برغم مكوثي شهرين في تلك القاعدة، لم أُميِّز الممرات الضيقة الأخرى التي تخلو من الألغام. فجر الهزيمة، فوجئنا بهجمةٍ ظَنَنَّا في البداية –أنا وأصدقائي اليافعون– أنها جزءٌ من التدريبات، أو أنها مجرَّد مناوشات كتلك التي بدأت في أمسية اليوم السابق، مرَّت القذائف شُهُبًا فوق رؤوسنا، أضاءت سماءً كانت تتأهَّب لشروق شمس نهارها، نهار سقط سهوًا من أعمارنا... التصقتُ بالمدفعية التي –ولحسن حظِّنا مُقارَنةً بمجموعات غيرنا– وُضِعَت فوق سيارة تويوتا، أي أن مدفعيتنا لم تكن ثابتة، مكنَّتنا من التقهقر والاندساس خلفها عند نقطةٍ تسمح لنا بصدِّ الهجمات، لم أستوعب ما يجري حقًّا إلَّا حين رأيت عليًّا يهرع نحو آمِرِ مجموعتي محنيَّ الظَّهر ويهتف:

«اطْلِقهم يا عبد السلام... اهربوا! تمت خلاص... يا نموتوا يا نتأسروا!».

تفاجأ آمِرُنا الضابط عبد السلام من أوامر العقيد عليٍّ، أوامر لا تَصدُر من رجل يؤمن إيمانًا تامًّا قاطعًا أنه في حرب دفاع عن الوطن لا غزو لوطن شعب آخر.

«هذا كلامك والَّا أوامر لنا كلنا يا عقيد عليّ؟».

بالكاد كنَّا نسمع أصواتهم، ونحن نرجو أن يوافق الآمر ويسمح لنا بالهروب من هذا الجحيم الملتهب.

«هاذم طلبة صغيرين يا عبد السلام، مافيش أوامر إلا أوامري... اطلقهم!».

التفتَ الضابط نحونا، لمحتُ احتقانًا في عينيه حسبته ناتجاً عن دخان احتراق الجثث والمعِدَّات المنتشرة في وسط القاعدة وعلى بعض أطرافها، ثم أدركتُ أنها دموع الهزيمة حين نطق مخاطبًا إيَّانا بصوت متهدّج:

«اللي بيي يهرب يهرب، في حفظ الله».

لكنه بقي، هربتُ، دون الالتفات نحوه حتى بكلمة وداع، كان تصرُّفًا أنانيًّا غريزيًّا مني أمام ضابِطٍ استقبلَنا وعامَلَنا معاملةً خاصة لم يعاملنا بها أيُّ ضابط في رُتبَته ولا أقل منها في القاعدة، اعتبرتُ نفسي محظوظًا حين ضمُّوني إلى مجموعته، لا فقط لأنه ينتمي لنفس قبيلتي وعِرقي، إذ أنه كان «تبَّاويًّا» مثلي من «الكُفرة»، ولكن لأنه درَّبني بنفسه على مدفع رشاش 23 مم مضاد للطائرات، كنتُ محظوظًا لأن ضباطًا وجنودًا آخرين لم يكونوا بالحرص الأبوي الذي شملني به الضابط عبد السلام، زميل لنا وهو أيضًا أحد الطلبة الذين جُرجِروا إلى هذه الحرب، لقي حتفه خلال التدريب بسبب «هَبَّة خلفية» لمدفع 106مم، فالجنديُّ الذي درَّبه لم يكلِّف نفسه عناء تنبيه الفتى بعدم الوقوف في تلك البقعة، اعتبر الأمر بديهيًّا لا حاجةَ للتحذير منه... مات الفتى، هكذا بكل بساطة! مات دون أن يعلم أهله لِمَ وكيف قُتِل، دون أن يعلموا حتى أين أُخِذ، وقد خرج صباحًا إلى مدرسته في يوم دراسي عادي، لم يَدْرِ المسكين، ولا أي واحد منَّا، لا ولم يدرِ أهالينا، بأن خروجنا من منازلنا في ذلك اليوم كان الخروجَ الأخير، حملونا في حافلات نحو مطار قاعدة «السارة»، قيل لبعضهم إننا ذاهبون في رحلة مدرسية إلى قاعدة أوزو، وقيل للبعض الآخر بأننا ذاهبون في زيارة إلى بنغازي! لم نُبالِ بالوجهة، المهم كان بالنسبة لنا أننا ذاهبون في رحلة مسلّية، نرى فيها أراضي جديدة، لم تكن رحلة مُسلِّية رغم أننا –بالفعل– نزلنا في أراضٍ جديدة، حدثت في تلك الحرب أكبر عملية خطف لطلبة المدارس.

في «السارة» مُنحنا حقائب «الكت»، وانتابتنا مشاعر بغرابة الوضع، لم تشطح عقولنا للدرجة التي شطَحَت بها عقول مَن قرَّروا إقحامنا في هذه الحرب دون حتى عِلم ذوينا، لم نتصوَّر أنه سيُلقى بنا في أتون تشاد وجحيمها! لقد كنتُ وحيدَ أبي؛ فأمي ماتت وأنا بعدُ طفل رضيع، وزوجته الثانية لم تنجب له أولادًا، زَهِدَ والدي في الأطفال واكتفى بي وأبقى عليها لتربّيني وتعتني بي، بعد هجرتي لأميركا واستقراري فيها بمدَّةٍ حاوَلتُ الاتصال بهم، ففوجئت بخبر وفاة والدي حسرةً على فقدي، وانتقال زوجته التي ربَّتني –وكانت لي الأمَّ التي لم تنجبني– من مدينتنا، ففقدتُ الأمل في الاتصال بها، ولم أحاول بعدها مُجدَّدًا، فكَّرتُ أنه لربما كان اعتقادها بموتي أفضل لها، لربما أضعها في موقف المحاسبة والمراقبة هناك إن علموا بتواصُلِها مع مُعارضٍ لبيي مُسلَّح هارب من حرب تشاد؛ فتُتَّهم بالخيانة!

كل شيء كان جائزًا في ظلِّ الحُمَّى التي أصابت النظام ومخابراته تلك السنوات البائسة، «تشاد» كانت بالنسبة إليه الشوكة العالقة، بأسراها ومفقوديها، الشوكة التي لم يَستَطِع بلعها فكابرَ ولفظَها.

هربتُ من مجموعتي تاركًا الضابط الطيب متتبعًا العقيد عليًّا، ظنَنتُه في طريقه لأحد المخارج الآمنة التي لا أعلمها، ولكني اكتشفتُ أنه يكرر ما فعله معنا، يجري بين المجموعات التي تحوي طلبةً أمثالنا، يأمرهم بالهرب، بعضهم يهرب إلى اللا مكان، يدور في حلقات لا تنتهي، كفأر في حلقة تشتعل، كانوا يبحثون عن فارٍ آخر يعرف الثغرات فيتبعونه، لم نكن نخشى الموت بالقذائف أو الأسر قدر خشيتنا من الدَّوسِ فوق لغم أرضي يحيلنا هباءً منثورًا. استمررتُ في ملاحقته دون عِلمِه، رأيته يعود إلى وسط القاعدة، فتردَّدتُ، كيف أعود لمنطقةٍ أخطر من التي كنتُ فيها!

اندسستُ مختبئًا خلف واحد من المدافع الثابتة وراء حائط مُقوَّس من أكياس الرمل هربَتْ مجموعته المكلَّفة به، فقد لاحظتُ خلال لحظات أن القوات التشادية تستهدف بصورة خاصة الأهداف المتحرِّكة، أو الثابتة التي تصدر منها النيران، وأبقيتُ عينيَّ على عليٍّ، رأيته يركض مُحذِّرًا ومتوعِّدًا لكلِّ مَن يرفض الهرب، وتساءلتُ حينها لِمَ يملك كل هذه الثقة في هزيمتنا؟ لِمَ لا يساوره بعض الشَّكِّ في قدراتنا ونحن الجيش المجهَّز بالكامل في أكبر قاعدة عسكرية بتشاد، وأكبر كابوس واجهه «حبري» رئيسها. كيف يكون على ثقة بلا جدوى المقاومة وهو يعلم أكثر مني أن الجيش التشادي لا يملك دباباتنا ولا صواريخنا، ناهيك عن طائراتنا؟ هل تراها القوات الفرنسية قرَّرَت التَّدخُّل مباشرة؟ راوَدَني الشَّكُّ في ذلك بسبب تدمير المقاتلات الفرنسية للرادار الوحيد في القاعدة، اتَّضح لي لاحقًا أن القوات الفرنسية لم تدخل في حربٍ مباشرة مع قواتنا، ربما راوَدَتْ عليًّا يومها نفس شكوكي.

آخر نقطة مرَّ بها عليٌّ قبل خروجه من القاعدة كانت واحدة من نقاط المعيشة، رأيته يركض بإحدى حقائب «الكت»، لم تكن ثقيلةً، عرفتُ هذا من سرعته، ولا ممتلئة؛ فلم يكن قد اعتنى بربطها من الأعلى، وحالما ابتعد عن وسط القاعدة –وكانت الاشتباكات بدأت تقلُّ حِدَّتها– قرَّرتُ الخروج من مخبئي وتتبُّعه، في اللحظة التي قرَّرتُ فيها ذلك انفجر شيء ما بالهدف الذي كنتُ مختبئًا خلفه، ظنَنتُ حينها أن رأسي هو الذي انفجر، أظلَمَت عيناي، وصُمَّت أذناي، اعتقدتُ أنني مِتُّ! ثم اتَّضَحَت الرؤية تدريجيًّا، وجَدتُني وسط غيمة غبار، فقدتُ إدراكي للحظات ونسيتُ لِمَ أنا في هذه البقعة وتساءَلتُ عن أصحابي، ثم عدتُ لرشدي، تذكَّرتُ عليًّا، بدأت أصوات المدافع والرشاشات تعود تدريجيًّا إلى مسمعي، للمفارقة، فرحتُ بسماع الانفجارات وقد ظنَنتُ لبرهة أني فقدتُ حاسَّة السمع! رفعت رأسي غير مبالٍ بكوني هدفًا لهم، مَدَدتُ عنقي باحثًا عن عليٍّ راجيًا انقشاع الغبار، متوقِّعًا لهذا العنق القطع في أي لحظة! فإمَّا أن يَدلَّني عنقي عليه فألحقه، أو أن ينتهي وأرتاح.

لمحتُه أخيرًا متواريًا خلف إحدى سيارات التويوتا الواقعة على امتداد موقعي، كان ينظر نحوي منحنيًا، وحالما لمحني أتحرَّك أشار إليَّ بأن أتبعه، كيف عرف بشأني؟ كيف انتبه لي وسط الجحيم؟ رأيته في تلك اللحظة ملاكًا بأجنحة، بطلًا منقذًا، أبًا حانيًا، سمِّه ما شئتَ من أوصاف البطولة المبتذلة، وشعرتُ برغبتي الطفولية العارمة للركض كما كنتُ أفعل نحو أبي هاربًا من كلاب الشارع الضالة حين كنت في الابتدائية.

انطلق، وانطلقتُ أتبعه، عرفتُ يومها معنى الركض، أركض في سباقٍ لا أعرف له خطَّ نهاية.

لحق بنا ضابطٌ وثلاثة جنود، لحظة اجتيازنا للمعبر الآمن التفتُّ فإذا بي ألمح القوات التشادية تنتشر في القاعدة، بين أقدامهم جُثَثُ مَن كانوا قبل لحظات أصحابًا ورفاقًا. في الحرب، لا يكتفي الموت بانتزاع الروح من الجسد في لحظة خاطفة، بل يجعل منك مداسًا، ضحيَّةً، بعد أن كنت كريمًا عزيزًا، في تلك اللحظة، تتحوَّل لجُثَّةٍ مجهولة الهوية، جُثَّة لن يبالي أحدٌ بدفنها.

بعد ابتعادنا مسافة وجيزة، صار خلافٌ بين الضابط وعليٍّ، يقول الضابط بأن علينا اللحاق بالقاعدة الليبية في «فايا»، أما عليٌّ فقد أصرَّ بأنها ستسقط أيضًا لا محالة، يقول إن «فادا» التي سقَطَت منذ شهرين –وقد ذاق فيها صدمة الهزيمة أول مرة– كانت قِطعَة «الدومينو» الأولى...

«مشكلتنا أننا نقنع أنفسنا باستمرارٍ بالحلول السهلة، المؤقَّتة، التلفيقيَّة؛ خوفًا من التجربة، خوفًا من المجهول، بل أكثر من هذا، خوفًا من الصعوبة في حدِّ ذاتها».

حدَّثني بهذا حين انفصلنا عن بقية المجموعة بعد ساعة كاملة من النقاش، قرَّر الضابط والجنود الانطلاق نحو «فايا»، بتتبُّع حدود قاعدة وادي الدوم حتى الوصول للممرَّات الجنوبية منها عن بُعد، ثم النزول حتى قاعدة «فايا»، بالنسبة لعليٍّ الهارب من «فادا» لم يكن يأمل ألَّا تكون «فايا» مُحاصَرَة بالفعل!

«كان ما قابلاتكش دورية تشادية في الطريق، معناها حتلقاهم قدامك في قلب فايا، راك تجازف».

لم يقتنع الضابط، رافضًا تمامًا لفكرة الهزيمة، مؤكِّدًا أن ما حدث في فادا وقاعدة وادي الدوم مجرد انتكاسة، وأننا سنستعيدها مُجدَّدًا، وأن لا بُدَّ من وصول تعزيزات من «طرابلس»؛ فالأخ القائد لن يسمح بهزيمة غير مُبرَّرة كهذه.

«مش حياخذوها العبيد، أكيد وصلتهم الأخبار وحيكون في رد قوي عليهم!».

كانت كَلِمَتَا «عبد» و«عبيد» وقتها قد فقَدَتا تأثيرهما العنصري تمامًا في نفسي؛ بسبب الحرب وصعوبة الموقف من جهة، ومن جهة أخرى لاعتيادنا عليها كصفة قد يناديك بها هناك في ليبيا حتى الصديق تودُّدًا، لا إهانة! فهناك، حتى الشتائم تُستخدم أحيانًا كوجه من أوجه التدليل! ولا تستغرب عدم مراعاة ذاك الضابط لوجودي وهو يتلفَّظ بها قاصدًا التشاديِّين، باعتباري أحمل نفس لون البشرة؛ إذ إن آخر ما قد يفكِّر به الضابط وقت السِّلم –ناهيك عن وقت الحرب– هو مشاعر الجندي أو نفسيته، وأول ما تعلَّمناه من العسكرية هو أن نقتل كبرياءنا في مواجهة الإهانة...

المهم... احترنا بين تكهُّنات كلٍّ من عليٍّ والضابط، اقتنع الجنود بحجَّة الضابط ولحقوا به، بينما لحقت أنا وحدي بعليٍّ.

عرفنا لاحقًا أن حَدْسَ الضابط كان في محلِّه؛ إذ وصلتهم أنباء ما حدث في القاعدة؛ ولكن ردهم «القوي» لم يكن إلَّا عملية إجلاء ألفين وخمسمائة ليبي ومُعارض تشادي من فايا، وسقَطَت بأيدي التشاديين بعد خمسة أيام.

أمَّا الضابط والجنود فقد صدق فيهم حدسُ عليٍّ؛ إذ لم يتمكَّنوا من اللحاق بفايا التي حوصِرَت بالفعل، ووقعوا تحت الأسر، التقيناهم لاحقًا في الأَسْر، إلَّا أنه لم يجمعنا سجن واحد، وكما بدا لي، لم ينضموا لنا في «معسكر الحرية»، إمَّا ماتوا تحت معاناة الأسر أو أنهم عادوا «للجماهيرية» مع مَن عاد بعد الحرب بثلاث سنوات.

لم أكن واثقًا من خيار عليٍّ، ولكني قرَّرتُ أن أضع فيه ثقةً مُطلَقةً، قرَّرتُ أن أتبعه كجرو صغير، وطَّنتُ نفسي أن شخصًا بهذه الثقة والثبات والصلابة، مع كل ما خبره وعايشه في هذه الحرب؛ سيكون الأجدر بالاتباع، وإن مات هو فلا يستحقُّ أمثالي إذًا فرصة للنجاة! هناك بشرٌ يُخلَقون للحياة، لدرجة يُخيَّل إليك أن الموت يأنف التقاطهم، تتوهَّم ذلك، ولكن للموت حكمة مختلفة عن ذائقتك وتصوُّراتك، بل يُتقِن الموت لعبته في كثير من الأحيان حين يختار التقاط الرائعين تحديدًا، يلتقطهم مبكِّرًا جدًّا، أبكر ممَّا تتصوَّر!

أتاحت لي تلك الرحلة أن أتأمل وجهه وكأني أراه للمرة الأولى، يتحدث في كل شيء، وأي شيء، غير عابئ بالرياح المترِبة، يبصق بين الحين والآخر ولا أفهم من أن يأتي بريقٍ يبصقه! استغرقتنا رحلتنا ساعات طويلة لم أعُد أذكرها، ما أذكره أنها كانت أطولَ رحلة أقضيها ماشيًا، البؤس يجعل من الأوقات والمسافات أطول وأعظم ممَّا هي عليه في الواقع، مُذْ ذاك اليوم، حفظتُ ملامح عليٍّ فما نسيتُها أبدًا بعد ذلك، حتى بعد وفاته بعشرين عامًا، حفظتُ النقطة التي يلتقي عندها حاجباه السميكان، مقدار لَولَبيَّة شَعرِه، والمسافة التي يزيد فيها طول شاربه قليلًا عند حافَتَيْ شفتيه الرقيقتين كحدَّيْ سكِّين، حنطية بشرته التي زادتها شمس الصحراء دكنةً، طوله الفارع وضخامة بدنه، كان يملك صفات الأبطال الخارقين النمطية، إلا أنه لم يكن بطلًا لِذاتِه، لقد سخَّر بطولاته لبناء أمجاد «أبطال» غيره، مؤمنًا إيمانًا قاطعًا بشعاراتهم وشريعتهم، مُسَلِّمًا تسليمًا تامًّا بحجَّتهم الدامغة لافتعال تلك الحرب التي استنزَفَت البلاد طيلة عقد الثمانينيات.

مع حلول الظهيرة، ومع الرمال الهائجة بفعل رياح القبلي؛ أُصِبنا بالعطش، داء الصحراء وامتحانها، حاولنا التغلُّب عليه بالتهام ما التقطه عليٌّ قبل هروبنا: ثلاث تفاحات وعلبة بسكويت، وبضع تمرات، التقطها حين همَّ بالفرار، مع بطانية بُنِّيَّة مهترئة الأطراف للصبر على ليل الصحراء المتجمِّد، ظلَّ عليٌّ يصبِّرني، يقول إننا نتجه شرقًا نحو قرية وادي الدوم، لعلَّنا نعثر على مَن يسقينا، ونلتقط بعض ثمار «الدوم»، ثمرة تشبه التفاح إلا أنها أكبر وبقشرة أكثر سُمكًا، ولها نواة كبيضة الدجاجة. ظلَّ يحدِّثني وأنا أتساءل من أين يجد اللعاب الكافي للإسهاب في الشرح والحديث عن أشياء غير مهمَّة! لا أتذكَّر أني نطقتُ بأكثر من ثلاث كلمات طيلة رحلتنا: «عطشان، حمو*، تعبت».

ربما كانت أحاديثه محاوَلةً للتخفيف عني كما تفعل الأم حين تُهَدهِد طفلها، هكذا كان ينظر إليَّ، بعين الرأفة، أخبرني بأننا لم نَذُق العطش الحقيقي بعدُ، هو ذاقه في حرب تشاد الأولى؛ إذ سبق له أن تاه في صحرائها، ذاق مرارة العطش التي دفعته لتجرُّع بوله، فاستبدل المرارة بالحموضة، وصف لي طعم البول وكأنه يصف شرابًا ما، لم أطلب منه توضيحًا! إلَّا أنه حين ضاق ذرعًا بتذمُّري نَهَرني بنبرة صوتٍ آمِرَة، ذكَّرَتني بمكانته كعقيد ومكانتي كجندي:

«خلّيك راجل!».

كلمتان كانتا كفيلتَيْن بإسكاتي بقية الرحلة، بعدها بساعة لمحنا عن بُعد آثارَ رَوَث إبل، والكثير من الذباب يطن فوقها وحولها، حاول على إثرها طمأنتي.

«لا بُدَّ من وجود تجمُّعٍ للسكان قريب من هنا، ربما هي القرية».

ولكي يبدو لي الأمر أكثر وضوحًا شرح لي كيف أنها تبعد فقط خمسة عشر كيلومترًا شرق القاعدة، ولكن لا بُدَّ من أننا انحرفنا قليلًا عن اتجاهنا بسبب العاصفة الرملية التي واجَهَتنا؛ فاستغرق منَّا الأمرُ كلَّ هذا الوقت.

أشار برأسه نحو رسغ يسراي، «أتملك شيئًا آخر إضافة للساعة التي على رسغك؟».

استغربتُ سؤاله فلم أعرف بِمَ أجيب، والساعة كانت هديَّةَ والدي أتاني بها من بنغازي قبل سبع سنوات، دسَّها لي حتى دخولي المرحلة الثانوية إذ لم تكن تليق بطفل، «صِرتَ رَجُلًا تليق بك ساعة بحزام معدنيٍّ لامع»، قالها لي بفخر صباح أول يوم أدخل فيه المدرسة الثانوية...

وفي غمرة دهشتي وتردُّدي إزاء سؤال عليٍّ الغريب، أوضح:

«قد نضطر إلى مساومة بعض أهل القرية بمقتنياتنا الخاصة، كي نشتري مؤونةً تكفينا في رحلتنا نحو أوزو، وربما دليل منهم يكفينا شرَّ التِّيه في الصحراء».

صمتَ لوهلة وكأنه تذكَّر شيئًا غفلنا عنه ثم أردف:

«وكي نشتري أيضًا صمتهم».

أريته بضع دينارات احتفظتُ بها في جيبي لأُذكِّر نفسي بأن وجودي في هذه البلاد التي لا تشبهني إلا في لون بشرتي هو وجودٌ مُؤقَّت وأنني عائد لأهلي ولمدرستي لا محالة، أطبق شفتيه حين رآها ثم زفر ساخرًا:

«لم تعد تهمهم هذه الدينارات، هزيمتنا تعني أن شمال تشاد سيعود لأنجامينا مُجدَّدًا يا فتى، أنتَ غير مستوعب بعدُ لحجم المصيبة التي ألمت بكل جندي ليبي يخطو في هذه اللحظات جنوب إقليم أوزو أليس كذلك؟».

لم أكترث لما يقول، لم يهمني يومًا أن أفهم هل أوزو ملكنا حقًّا؟ وإن كان كذلك فلماذا إذًا نتجاوز حدوده إلى نصف هذه الدولة الشقيقة؟ ولماذا نموِّل المعارضة فيه ونقاتل معها؟ ولماذا يُصرُّ زعيمنا على «تليبي*» هذا النصف؟

وقف يفتش بين ما حوته حقيبة «الكت»، أخرج منها كيسًا وضع فيه ساعة يده، ثم انتزع خاتمًا فضِّيًّا من بنصره ظلَّ يتأمَّله لوهلة ثم رماه في الكيس مع الساعة، بدا لي أنه خاتم زواجه من منظره البسيط الخالي من النتوءات أو الإضافات، مدَّ يده نحوي يطلب مني نزع ساعتي فنزعتها مُنازِعًا نفسي لائمًا لها، وألقيتها في الكيس، بدأ يحكُّ ذقنه متأمِّلًا قدميه، واصل

بعدها تفتيشه فاستخرج سكين مُديَة، ثلاث علب سجائر من التي يوزّعونها علينا في المعسكر، مذياع صغير وولّاعة فضية فاخرة ربما تعود لصاحب «الكت»، مدَّ كفَّه طالبًا مني الدينارات.

«هات ديناراتك، لربما كانوا هم أيضًا غير مستوعبين بعدُ إلى حقيقة أنهم –قريبًا جدًّا– لن يعودوا ليبيين، بل تشاديّين مجدَّدًا».

هزَّ الكيس الذي ملأه بالكاد، «وفقًا لبساطة أهل القرى هنا؛ فإن ما نملكه ثروة!»، واصلنا مسيرنا... شرح لي أنه بالإضافة لتجربة هروبه من فادا منذ شهرين، فقد مرَّ بتجربة مشابهة في حرب تشاد الأولى التي سيطَرَت فيها قواتنا على نصف تشاد الشمالي «المسلم»، بمساعدة من المعارضة التشادية، إلا أن قِسمًا كبيرًا من تلك المعارضة في حربنا هذه انضمَّ إلى أنجامينا، وباتت صفوفهم مُوحَّدة –مسلمين ومسيحيين– ضدَّ المحتلّ الليبي «الأبيض»، بعد محاولة «زعيمنا» اغتيال كوكني وداي (زعيم المعارضة) في طرابلس العام الماضي.

«وعلاش هذا كله!».

قلتُها بنفاد صبر، متناسيًا ما حدَّثني به رفاقي عن كون عليٍّ أحدَ أشدِّ المؤمنين بالنظام الجماهيري، بل واحدًا من العسكريين الذين تحرَّكوا ليلة الأول من سبتمبر عام تسعةٍ وستين، إذ يفقد الإنسان خوفه من المحاسبة أمام خوفه من المجهول، أو خوفه من الموت، الخوف الكبير يأكل الخوف الصغير. نظر إليَّ بطرف عينه، ثم أشاح نظره، ولم يُجِب إلَّا بعد أن نسيتُ سؤالي تحت سياط ألسنة اللهب النازلة من السماء والصاعدة من الرمل.

«يا ابني... حكومة تشاد الحالية موالية للإمبريالية والصهيونية، حكومتهم تهديد بالعدوان... والتهديد بالعُدوانِ عُدوانٌ...».

مجرَّد تَلفُّظه ببضع كلمات حفظناها عن ظهر قلب من النشرات الإخبارية ومناهج المدرسة ففقَدَت تأثيرها على نفوسنا دفعني إلى عدم الاكتراث لما يقول، لم أُردِّد بيني وبين نفسي إلا كلمة واحدة، لكن خجلي منه واحترامي –الذي لم يهتزَّ– له حالَا بيني وبين التلفُّظ بها عَلَنًا: «تُرَّهات.. تُرَّهات.. تُرَّهات».

إثر مُضيّ رياح القبلي بأتربتها لمحت نقطةً ظنَنتُ في البداية أنها سرابٌ يلهو معي لا غير، ولكنَّ عليًّا هتف: «شوف شوف!»، أشار لنفس النقطة التي لمحتها، «تبدو شجرةً أو كائنًا ما، يبدو أننا اقتربنا من القرية»، وانفرَجَت أساريره كأننا وصلنا إلى الجنة، أو كأننا وصلنا إلى حدود ليبيا الجنوبية، حدودنا عند شريط أوزو كانت الجنَّةَ بالنسبة لي، ليس لأنها حدود بلادي، لم أفكِّر بالوطن حينها ولم أحِنَّ إليه. في أوقات الحرب والخوف وترقُّب المجهول ستفكر فقط بسلامتك وتَحِنُّ إلى الشعور بالأمن، وصادف أن اقترنت سلامتي حينها ببلادي، فيما بعد، صار الوطن تهديدًا آخر لحياتي، فتبعتُ سلامتي مُجدَّدًا إلى أن اقتادتني ووالدك ومَن معنا إلى هنا، إلى أميركا، علَّمَتني هذه الحرب أن وطنك ليس مكانًا ترنو إليه وتشتاق، وطنك هو أي مكان لا تخشى فيه ولا تجوع ولا تعرى.

شحذنا الهِمَم ونسينا تحت وقعِ الإثارة والأمل بالنجاة ما فعله بنا العطش والجوع، لمحنا كائنات تتحرَّك إلى جوار النقطة الثابتة والتي بدأنا حينها نتبيَّن أنها نخلة قصيرة، لم يخطر ببالي أن تكون تلك الكائنات بشرًا صغارًا ندعوهم الأطفال! فظروف الحرب تنسيك ما يحيط بالحياة الطبيعية للبشر العاديين، تنسيك أن قاطني مناطق النزاع بشرٌ مثلنا، يسعون وراء رزقهم ويتزوجون، ينجبون أطفالًا ليلهوا في هذه الأقفار بأريحية تامة، دون خوف عليهم من غدر السراب وجاذبيته إذا ما لحقوا به وتاهوا منهم، سكان الصحراء يعيشون حياة يتحدَّون فيها الخوف باستمرار: الخوف من الموت، الجوع، العطش، المرض، يتمسكون بتلك البقعة من الرمال وكأنَّ فيها سحرًا يستبقيهم.

من على بُعدِ مسافة ما انتبه إلينا أولئك الصبية، توقَّفوا عن اللعب بفروع النخلة ونظراتهم الفاحصة لا تحيد عن وجوهنا وهيئاتنا المزرية، أشار لهم عليٌّ ضامًّا أصابع يمناه مُحرِّكًا إياها أمام شفتيه مُشيرًا لحاجتنا إلى ما يؤكل، وردَّد بعد وصولنا إليهم: «مَيَّة مَيَّة»، فهموه، هزُّوا رؤوسهم بالفهم، وكان العطش هنا سبب وقوعنا في فخ الاعتقاد بأن أطفال الأهالي هنا لا يُميِّزون بين اللبيي والتشادي، ولا يدركون أن هناك حربًا، فلقد تبيَّن لنا أنهم يعرفون أكثر ممَّا ينبغي، أشاروا إلى الحقيبة التي يجرُّها علي، تبادلنا نظرات عدم الفهم أو التصديق بأنهم يطلبون مُقابِلًا، قدَّرتُ أن أكبرهم لا يتجاوز الثانية عشرة! فأشار لهم عليٌّ نحو فمه مرة أخرى: «مَيَّة...»، ثم أشار نحو الحقيبة: «تاخذوا فلوس...»، وانطلقوا عقب كلمته مباشرة كنِبالٍ سُحِبَت حتى أقصاها، أبهرتني قدرتهم على الجري في تلك البيئة، أنا المنهك في حينها، رأيتهم يطيرون لا يركضون!

لشدَّة إنهاكي، ولاعتقادي بأني أملك الوقت الكافي بعدُ لتناول بعض ثمرات الدوم المتدلية من النخلة، أجَّلتُ تناولها ريثما يأتينا الصبية بالماء، وطلبتُ من عليٍّ بأدبٍ جمٍّ –خوفًا من توبيخٍ آخر يتعلَّق بتذمُّري– أن يسمح لي بالاستلقاء على ظهري؛ فالمشي على الرمال مُنهِك؛ إذ تبدو الجاذبية أقوى منها على الأراضي اليابسة، نفضتُ أكوام الرمال المتجمِّعة في ثنيات أكمامي وسروالي، سمح لي بالراحة، فاستلقيتُ، وتبعني ففعل مثلي، لم أُبالِ كثيرًا بالذباب الذي ظلَّ يلاحقنا كفرائِسَ شهيَّة! الذباب الذي يخرج من عدم الصحراء ويعيش حياة سرِّيَّة وسطها، الصحراء عرَّابة الموت، كنت أتعارك مع ذبابها اللَّزِج فترة مكوثي بالقاعدة، ربما من الفراغ الذي سيطر علينا فيها، الفراغ الذي يقتله بعضنا بقراءة القرآن، وبعضنا بارتجال الشِّعر الشعبي والغناء والاستماع لمن يجيدونه، وبعضنا يتفنَّن في رصف الحصى لكتابة كلمات بمقياس كبير على منوال «الله أكبر»، و»الفاتح أبدًا»، ربما ظنًّا منه بأن طائرةً ما سيكون قائدها طيارًا عربيًّا يقرؤها فتدفعه لخشيتنا أو أدنى الأذى أن تستفزَّه وتُغضِبه تلك الكلمات الضخمة، أو ربما ظنًّا منه بأن الطيور إذا ما مرَّت من هنا وشاهَدَت تلك الكلمات فستتحوَّل إلى رُسُل رحمة وشفاعة تحمل عذابنا إلى الله، فيمَ كان يفكر هؤلاء وكلنا يعلم بأن لا طير ولا طائرة في تلك البقعة؟! حتى الطائرات القليلة التي حلَّقت لم تكن إلا بقادة فرنسيس لا يفقهون من العربية حرفًا.

لا أدري كم مكثنا، وهل نِمتُ أم كنت في البرزخ بين الحياة والموت؟ ما أذكره جيدًا هو لحظة سمعنا صرخات ذكَّرتني بطقوس تقديم القرابين لدى القبائل الأفريقية!

كيف لم ينتبه كلانا لصوت تلك التويوتا اللعينة حين اقترَبَت؟ هل أيقظونا من نومنا أم أن فظاعة المشهد أعادتنا من الموت إلى الحياة؟ دون أن نشعر وجدنا أنفسنا واقفين، والدماء التي ظننت أنها نزَحَت من عروقي انطلَقَت انطلاقة واحدة إلى رأسي، عند ناصيتي شعرتُ بتنميلٍ غريب وسخونة، وحلقي ازداد جفافًا، حتى إنني حين استجْدَيْتُ ريقًا لابتلاعه كدتُ ابتلع لساني!

حاصرنا حوالي عشرة جنود، لم يكن منظرهم يوحي أنهم جنودٌ في جيشٍ نظاميٍّ قدرَ ما يوحي بهويَّتهم كأفارقة يقاتلون بشراسة جُبِلوا عليها ونسيناها، شعورهم متدلّية كخيوط صوف مغزولة، تلفُّ رقابهم خيوطٌ تتدلَّى منها أحجبة من جلود الثعابين والحيوانات، لم يكن ينقص المشهد إلا حبلًا يربطنا بالنخلة، ونارًا تشتعل تحت أقدامنا كي يتحوَّل إلى مشهد سينمائي متكامل لتقديمنا كقربان للآلهة، خاصة مع صوت قرع الطبول الذي كنتُ أسمعه بشدة، ذاك نبض قلبي كان يقرع لأجلهم مقطوعة موتي.

«قعمز! قعمز*».

صرخوا بنا بالطريقة الخاصة بهم في نطق اللهجة الليبية، رفعنا أيدينا وأنخنا على رُكَبنا، انهالوا علينا ضربًا فما وسعنا الاحتماء إلَّا بالرمال من تحتنا، تمنَّيتُ لحظتها أن أُدفن ريثما يرحلون، ولكن هيهات! نالنا ما نالنا من الكدمات الدامية، وأكوام من الرمال حشرت في أفواهنا، نبصقها فلا يلبثون إلَّا بالمزيد يهيلونه على وجوهنا حاشرين أكُفَّهم المليئة به مُجدَّدًا وكأنما أرادوا لنا أن نذوق ما يذوقه الموتى في قبورهم، كل ذلك وسيلٌ من الشتائم والسباب تنهال على مسامعنا، في الواقع لم أفهم من بين كل ما قالوه إلا «القذافي» و «تشاد»! تلك اللحظة فقط بدأتُ أستوعب أن معركتنا لم تكن معركةَ استردادِ أرض؛ بل كانت عمليَّةَ احتلال أرض لشعب آخر.

لمحتُ بصعوبة الصبية من بعيد يقفون بفخر فيما كان الجنود يربطون أيدينا بأسلاك معدنية، ربما لم تعجبهم مساومة عليٍ، ربما لم يقتنعوا «بالفلوس» وأرادوا الحقيبة كاملة، أو ربما في كل الأحوال كانوا سيقصدون أقرب دورية للإبلاغ عن الجنود الليبيين الهاربين!

«مرتزق... مرتزق!».

هكذا صرخوا بنا بينما كانوا يلكموننا ويركلوننا بأيديهم وأقدامهم فيما كنَّا نصعد على متن «التويوتا»، تلك السيارة العظيمة التي حرَّروا بها أراضيهم وانتصَرَت لهم أمام دباباتنا وترسانتنا! رُمينا في صندوقها على وجوهنا وضع انبطاح، وصعد عليها العشرة، جالسين على حافَّتي الصندوق الخلفي وأقدامهم تحيط برؤوسنا وأجسدانا، وبين الفينة والأخرى كنَّا نتلقَّى ما نتلقَّاه من شتائم وركل ودهس. ضربهم لنا، وحرارة صندوق السيارة، تسبَّبا في فقداني الإحساس بأطرافي، وبنصف وجهي الملتصق بأرضية صندوق السيارة، وبدا لي حينها أني –ولا بُدَّ– أرى كابوسًا سأصحو منه في هذه اللحظة، كلَّما أغمضت عيني قلت «الآن... سينتهي الآن»، ولكنه لم ينته! تذكَّرتُ في تلك اللحظة ذلك الضابط والجنود الثلاثة، أتراهم في مأمنٍ

الآن في فايا؟ ولكني حين التفتُّ إلى عليٍّ ورأيته ساكنًا مستسلمًا مطمئنًّا، ينظر نحوي بنظرة تُحدِّثني: «أن اهدأ، ربما كان الأسرُ خيرًا من الضياع في الصحراء!»، سكنتُ، ووكَّلتُ أمري لله، حدسي أنبأني أن أتبع عليًّا وحسب، وسأواصل الإيمان بهذا الحدس.

---

* الفرق بين الكلمتين دلالة على حقبتين، فالثوريون هم الثائرون والمناصرون للقذافي من خلال نشاطهم فيما عُرف باللجان الثورية وغيرها من الكيانات المشابهة، أما الثوار فهي كلمة ارتبطت بالمسلحين الذين انتفضوا وأسقطوا نظام القذافي في فبراير 2011.

* الترمس: حافظة حرارية لحفظ السوائل الساخنة أو الباردة.

* زمنية: أصيلة

* حمو: وصف محلّي للجو الحارّ، يستخدمه أهالي النصف الشرقي من ليبيا.

* تليبب: جعله ليبيًّا..

* قعمز، أو قمعز: اجلس.

السجن

«بالأمس وصلني ردٌّ انتظرته مُنذ غادرتُ الأراضي الليبية، إنه منها، سارة، ألم أخبرك عزيزي توماس باسمها في الرسائل السابقة؟ حسنًا... هي ابنة عمّي الذي أرسلتُ إليك أولى شهاداته، ما زالت تعتبرُني استغللتُ طيبة عمّي وشهامة أخيها هشام كي أصنع اسمًا وشهرة على حساب اسم العائلة! أرسَلَت لي تمنحني مُهلةً للرجوع عن قراري إن كنتُ فعلًا أحبُّها وأتمنَّى الارتباط بها!

ولا أدري، هل سنمضي حياتنا إذن يفرض كلٌّ منَّا أفكاره على الآخر؟ هل تحاول إرغامي على عبادة أصنامها؟ ثمَّ إنني لم أَعُد أفهم إلى أيّ مُعسكرٍ تنتمي هي أساسًا؟! هذا إن كانت لا تتخبَّط بين رأيٍ وآخر، وأيديولوجيا وأخرى، بين كل حرب وحرب، وبين كل طابور وآخر من طوابير تلك البلاد التي لا تنتهي.

وأشعر بالحيرة والشك في رجاحة موازيني الآن، أكانت حقًّا استثنائيَّةً أم أنني مَن أصرَّ على إلباسها ثوبًا أكبر منها، فاختفَت وسطه ولم أعد أعثر عليها؟

هل تُصدِّق أنها تتوهَّم تَودُّدي لها رشوةً ومحاوَلةَ استغلالٍ أخرى؟!».

لم أملك المزاج الكافي للذهاب إلى المكتبة اليوم، لا ترجمة، لا كتابة، ولا دغدغة... فقط الكثير من الإحباط والألم... لم أنهض حتى من سريري وتظنُّني أمّي متوعِّكًا، وظنُّها -بطريقةٍ ما- في محلِّه، فرسالة سارة المفاجئة والمخيِّبة سبب توعُّكي وسبب كل هذا الصداع الذي نال مني اليوم... كشَفَت الستائر وطلبتُ منها راجيًا إغلاقها. ارتكبتُ حماقةً باستعجالي قراءة الرسالة عبر الهاتف في أول خمس دقائق بعد استيقاظي.

الحُبُّ حين يتحوَّل إلى قيدٍ جديد لا يعود حُبًّا، فهل أحبَّتْني أم أنها هي مَن تحاول استغلالي لمكاسب عائلية تخصُّها؟

حرصتُ على ألَّا يجرحها اعتدادي بنفسي واحترامي لوقتي الذي قد أَتَتْ على أخضره ويابسه، وذهَبَت بالبقية الباقية من عقلانيَّتي في مهبِّ ريح سوء الفهم وسوء النية... احترمتُ أسلوبها في التعبير عن غضبها وحزنها وحنقها، ولكني غير مستعدٍّ بعدُ للدخول في علاقة تمتصُّ مشاعري التي قلَّما سمحتُ لها بالظهور علنًا.

«بالعودة لموضوعنا، لا تقلق؛ فتردُّدي حيال الكتاب لا علاقة له بموقف سارة، فأنا هنا أحاول استعادة نفسي... مُرفَقٌ مع هذه الرسالة يا صديقي العزيز جزءٌ ثانٍ من شهادة بَرَكة التي بدأتُها في المرة السابقة، والبقية ستأتيك فور انتهائي من إيجاد صيغة لترجمتها، البقية هي عين الزَّوبعة، سبب حيرتي وتردُّدي، وقد لا أجد ما أخبرك حولها... فأنا مُتعبٌ... أنا -بِحَقٍّ- خائرُ القوى...

نلتقي قريبًا...».

بَــرْكة: الصبر شين*

تشاد 1987- 1990

«مرحبًا بكم في بلاد العطش!».

قالها آمِرُهم التشادي النحيل (كلهم نحيلون) في النقطة العسكرية التي تنتمي إليها الدورية القابضة علينا، حين طلب عليٌّ منهم الماء، بعد وصولنا وتَلقِّينا دفعة جديدة من الضرب والإهانة.

ولكنهم أتونا بعد قليل بجركن مياه، تجرَّعتُها بسرعة فوجدتها ساخنة، نزلت في جوفي كالسُّمِّ تحرق ما تمرُّ به، إلا أني تناوَلتُ بعضًا منها بكفِّي ونثرتها على وجهي ومسحت بها عنقي أملًا في أن يُبرِّد عليَّ أثرها، عِوَضًا عن العرق الذي لم تعُد غُدَدُه تجد ماءً تذرفه عبر جلدي.

كان الجذل والفرح سائدًا بين الجنود التشاديين، فتشوا حقيبة «الكت» التي ظنَّ عليٌّ أنها ستنقذنا، فإذا بها تصبح مَلهاةً وتسلية لهم، أضحكتهم الدنانير الليبية التي وجدوها في الكيس، ألقوها على التراب أمامنا وتهافتوا على دوسها بأقدامهم، اختطف أحدهم المدية فقد أعجبته، وآخر أعجبه الراديو فقرَّر اقتناءه، أخذ يضغط أزراره، ثم يبحث عن موجة ما بعينها، حتى عثر على ما يريد، سمعنا موسيقى عسكرية تصدح منه، وصوت حماسي يخطب، بالفرنسية، ثُمَّ بالعربية:

«سقطت اليوم القلعة الضخمة، والعملاقة، التي بُنِيَت في بلادنا العزيزة، رغمًا عن سيادتنا».

لم نجرؤ على فتح أفواهنا، كنتُ أتأمَّل وجوههم الساخرة، المنبثقة عن ابتساماتهم وضحكاتهم بأسنان متآكلة، أتأمَّل ثيابهم والمكان الذي قادونا إليه، المبنى شبه المهجور الذي يتَّخذونه مقرًّا لهم، البنادق مُعلَّقة على شجرة يابسة ومُتَّكِئة أسفل منها كثمار وجذور، بينما اكتفى عليٌّ بتأمُّل قدميه، عليٌّ الذي خُيِّل إليَّ في زمن قريب أنه لا يعرف كيف يحني رأسه، تلك الساعة كانت فارِقةً في حياتنا، ساعة ولادتنا من جديد بمخاض عسير، أيقنَّا أننا لن نعود كما كُنَّا مُجدَّدًا، أبدًا.

جلس الآمِرُ على كرسي من النوع القابل للطي أمامنا نحن المقرفِصَيْن على الأرض، وحولنا الجنود واقفين يتسلَّون بمتابعة عملية الاستجواب التي على وشك الحدوث. وضع الآمِرُ ساقًا فوق ساق، عدَّل عمامته، انتزع نظارته الشمسية وأرجحها بين أصابع يده، متأمِّلًا وجهينا لبُرهَةٍ، ثم نطق كأنه يعاتبنا:

«أليس عيبًا أن يتعارك مسلمون، بعضهم مع بعض؟».

عرفنا إذًا أن القوة التي قبَضَت علينا تنتمي للنصف الشمالي من تشاد، النصف المسلم، تنهَّدتُ برفقٍ شاعرًا ببعض الطمأنينة.

«آخر ما وصلني بأن تعداد جُثَث أصحابكم قد تجاوز ألفًا، هؤلاء فقط في قاعدة وادي الدوم، هل يستحقُّ تليب تشاد* كل هذه التضحية؟ بالنسبة لنا، استقلالنا يستحقُّ أكثر من هذا!».

رفع عليٌّ نظره باتجاه الآمِر بتحدٍّ واضح، فَهِمَه؛ فخاطبنا وهو يحدِّق مباشرة في عينَيْ عليٍّ:

«هل منكما مَن ينتمي لِلّجان الثورية؟».

نفى كلانا بهَزِّ رأسه.

«لماذا تحاربون إخوانكم التشاديين؟».

هنا نطق عليٌّ وكأنه ينتظر طرح السؤال الوحيد الذي يعرف إجابته:

«نحن لا نقاتلكم، وإنما نقاتل الوجود الفرنسي والأمريكي الذي يُهدِّد أمن بلادنا».

ضحك الموجودون، لم يبهرني حتى تلك اللحظة إلا إجادتهم للغة العربية واللهجة الليبية تحديدًا، وتساءَلتُ إن كان هذا تحت تأثير احتلال قواتنا لنصف بلادهم خلال سبع سنوات أم بحُكم جيرتنا بهم.

نطق أحدهم وكأنَّ إبرةً ما وخزته:

«يا مرتزق، هل قابلك حتى الآن جندي فرنسي أو أميركي واحد؟».

قلَّب الآمِرُ بصره من الجندي إلى عليٍّ منتظرًا إجابته، توجَّه عليٌّ بردِّه نحو الآمِر:

«ليس بالضرورة أن يكون التدخُّل بجنود أفراد، هناك قواعد عسكرية، تمويل، دعم لوجستي...».

قاطعه الآمر في تلك اللحظة:

«الدعم والتمويل العسكري والاستخباراتي يأتينا أيضًا من دول عربية ومسلمة أخرى، إنهم يدعِّمون استقلالنا مقابل تحطيم أحلام زعيمكم العالق في حلوقهم كالشوكة...».

لم يستطع عليٌّ إنكار الأمر الذي تفاجأتُ به وكنتُ أسمعه للمرة الأولى، هل حقًّا يأتي الدعمُ من جيراننا؟ من أشقَّائنا؟ بل حتى من البلاد التي تحتضن أقدس مُقدَّسات المسلمين؟ ماذا، أَمُغيَّبون نحن وتائهون إلى هذه الدرجة؟ أم أن للسياسة لغة أخرى لا يدخل فيها شرف الأخوَّة حيِّزَ التنفيذ؟ اتَّضح لي حينها أن شعارات القومية العربية التي أُتخِمنا بها لم تكن سوى وقودًا لنارٍ نحن –الشعوب– ننفخ فيها ونصدِّق أنها آلهة تحكمنا، تجمعنا، وتربطنا بعضنا ببعض.

بدأ بعدها الاستجواب الحقيقي، عن أماكن قواتنا، أسلحتنا وذخائرنا، أسماء القادة العسكريين الموجودين، وفيما إذا كانوا قد هربوا أو قُتلوا، ركَّزوا في استجوابهم بالأسئلة والإهانة نحو عليٍّ؛ فقد عرفوا أنه أعلى رُتبَةً مني، وعرفوا أيضًا بأني

لست عسكريًّا بل طالبًا في المدرسة الثانوية جئتُ لهذه الحرب مكرهًا مُغيَّبًا، أخبرهم عليٌّ بهذا علَّهم يرأفون بحالي، ولكن الآمِر أشار نحو أحد الجنود ساعتها مخاطبًا إيَّاي:

«حتى هذا اسمه بَرَكة».

خاطبني الجندي التشادي الذي يشبهني في الاسم ولون البشرة، ويُناقِضُني في نظرة العِزَّة والتَّحدِّي والإصرار:

«حتى أنا أبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، هذا شيء عادي، هذه سِنُّ الرجولة، والحرب للرجال!».

أوضح الآمر:

«أنا أكبرهم، ولا يتجاوز عمري الرابعة والثلاثين، كم عمرك يا عقيد عليّ؟».

ضحكوا بعدها ساخرين منَّا.

«أنتم أيها الليبيون عاطفيون جدًّا، تشفقون على جرحاكم وتصرُّون على العناية بجُثَث موتاكم وسط أتون الحرب متناسين أنها حرب، وأن موتاكم –إن كانوا بالطبع كموتانا– لن يرضيهم أن تلتفتوا عن مبتغاكم للَمْلَمَة أشلائهم! مثلًا أنتَ، ينتابك يا عليّ الشعور بالشفقة حيال زميلك، تعتبره طفلًا، وترغب أن نعامله معاملةً خاصَّة باعتباره مدنيًّا! ألم يجعل منكم القذافي شعبًا مُسلَّحًا؟ أخبِرْني!».

طأطأ عليٌّ برأسه مُجدَّدًا، فيما استنتجتُ لحظتها أنهم لا يرونني أقلَّ مسؤوليَّةً وإثمًا من عليٍّ، بالنظر إلى ثقافتهم التي لا ترى الفتى الذي بلغ الرابعة عشرة إلَّا رجُلًا، هكذا أوضحوا الأمر، ويبلغ متوسِّط أعمار الجنود عشرين عامًا، يزيدون عنها وينقصون ببضعة أعوام.

استأذن آخَرُ آمِرَه لينطق بالمزيد:

«أنتم جبناء أيضًا، لا تقاتلوننا إلا متمترسين خلف أكياس الرمل أو من داخل مقصورات دباباتكم، أنتم لا تواجهون، تقذفون نيرانكم عن بُعدٍ غير آبهين بإصابة أهدافها، وحمقى لأنكم تظنُّون أن الحرب هي ترسانة ضخمة، حمقى لأنكم لا تعرفون أن الترسانة الضخمة هي نقمة حرب الصحراء ولعنتها. دباباتكم البطيئة التي لا تجاري سرعتنا، ننسفها نحن بتويوتاتنا في لحظات... التويوتا التي هزمناكم بها أنتم مَن موَّلَنا بها، أو بالأحرى زعيمكم، إمَّا عن طريق المعارضة التي دعَّمَها وانضمَّت للجيش الوطني، والتي كُنَّا ننتمي إليها، أو عن طريق الغنائم، نحن أذكياء لا تهُمُّنا دباباتكم وأسلحتكم الثقيلة وطائراتكم، نعاف اغتنامها ونتركها بأراضيها تحترق؛ لأننا نفهم الصحراء، نحن نفهم الأرض التي ننتمي إليها، الأرض التي لا تُرحِّب بالثقيل، كلَّما كنتَ أخفَّ؛ كلَّما ازداد دعمها لك».

صفَّق بعض الجنود فرحًا وفخرًا وتأييدًا لهذه الخطبة الحماسية، وابتسم آمِرُهم وهزَّ برأسه موافقًا، وأراد أن يكيلنا بالمزيد:

«نحن مثل أجدادكم الذين نسيتم أثرهم، فاجأناكم بقوة البدو وعنادهم، فاجأناكم بفهمنا لأرضنا وفهمها لنا، تمامًا كما فاجأ أجدادكم المحتلَّ الإيطاليَّ... أحقًّا تنتمون إلى أولئك؟».

ضحكوا بشدَّة، فار الدم في عروقي، وبدأت تلك اللحظة أشعر بالغضب، قلتُ بنبرة طفلٍ خائف أراد الحفاظ على قطرة من كرامته:

«أنتم تتركون الأسلحة الثقيلة لأنكم تجهلون استخدامها فقط لا غير».

سكتوا جميعًا، نهض الآمِرُ والنحنى ملصقًا وجهه بوجهي، شممتُ رائحة فمه الكريهة حين تحدَّاني بهدوء وثقة:

«عاود شن قلت؟».

التفتُّ لعليٍّ، فما رأيت في وجهه إلا تغضُّنًا وحنقًا يضاعف ما دفعني للتفوُّه بما تفوَّهتُ به، ولكن نظرته اختلطت باستجداء، لم يتصوَّر هو –كما لم أتصوَّر نفسي– أن يصدر عني هذا الموقف المعاند، أطفأ الخوف الذي عاد لحظتها نيران غضبي، طأطأت رأسي، ولكن ندمي لم يشفع لي؛ إذ لم يتردَّد الآمِرُ في جَلْدي بعصا لم أنتبه لوجودها حتى لحظة شعرت بلسعتها على ذراعي، ولم أميِّز بعدها هل التنميل الذي لحق تلك الجلدة في أطراف أصابعي وذراعي كان بسببها أم بسبب الخوف، سيَّما وقد انتشر أثره ليشمل كتفيَّ وعنقي.

***

أسبوعان قضيناهما بلياليهما قبل انتقالنا إلى السجن في أنجامينا، التقيْنا بسبعة أسرى ليبيين سبقونا، أحدهم يُدعى منصور، هو ضابط أدنى رُتبةً من علي، ولكنه ما فتئ يغرم عليًّا وكأنه صاحب الأمر والنهي، وكأنه مَن قرَّر إعلان الحرب ودق طبولها، وعليٌّ لا يردُّ إلا بكلمة واحدة؛ «الصبر... الصبر»، لم أره يحنق رادًّا على استفزازات منصور، تكفَّلنا نحن –البقية– بتهدئته كلما زارته نوبة الندم والمحاسبة، وبدا لنا أنه يفقد صوابه تدريجيًّا حين خاطب عليًّا مرَّةً: «لوين تبي توصل بينا؟ وين تبي تمشي بيه هالمجد هذا كله؟ وين يا قايد!».

عرفنا وعرف عليٌّ حينها أن منصورًا لم يكن يخاطب إلا القذافي مرتئيًا إيَّاه في عليٍّ، فكلنا نعلم موقع عليٍّ من ثورة «الفاتح»، وإيمانه المطلَق بأهدافها!

لم يستغرقنا الأمر أكثر من يوم واحد للاعتياد على فكرة الأسْر، وجود ليبيين آخرين معنا لدى نفس هذه الكتيبة من الجيش التشادي أثار في نفوسنا بعض الأُنس؛ فنحن نشعر براحة أكبر وسط جماعات نألفها، راحة قد تدفعك للرضا بالموت، ما دُمتَ لا تموت وحيدًا!

الكثير من الذباب، ثيابنا الرَّثَّة وروائحنا الحامضة، الشاي الأخضر، حليب البودرة رديء الصنع، الكثير والكثير من العصيدة بالزيت الحار، والقليل من الأرز المُسوَّس والتمر اليابس، حصران الصلاة وأصواف جلود الخراف التي ينام الجنود

فوقها، قرابي الماعز التي يحفظون فيها الماء رغم أنهم لا يشربون إلا لترًا واحدًا في اليوم، هذا ما علق برأسي من ذكرى تلك النقطة التي مكثنا فيها أسبوعين، عملنا على خدمة جنود الكتيبة وآمِرِهم كما تقتضي قوانينهم في معاملة الأسرى، ننظف ونساعد الطَّبَّاخ ونغسل الصحون، كنتُ أصغر الأسرى فازداد العبء ثِقلًا، وازداد سيل الأوامر، لكني وجدتُ معاملة أفضل من قِبَل بعض الجنود حين علموا تبَّاويَّتي، فأخذ بعضهم يناديني بابن العم بدل «المرتزق»، ولسبب ما لم يُجبر عليٌّ مثلنا على الخدمة، بل تُرك في ركنه تحت الشجرة واجمًا لا يتحرَّك إلا للصلاة أو لمساعدة أحد الأسرى المصابين بين الحين والآخر، بل أثار استغرابنا عدم حرمانه من سجائره التي طلبها بقليل من الأنفة، منحوه عددًا أقلَّ مما طلبه في اليوم، إلَّا أننا وجدناها لفتةً كريمة من سجَّانينا لم نجد لها تفسيرًا! ربما رتبته استدعت أن يُجَنَّب المزيد من الإهانة، أو ربما أوامر سابقة تُمهِّد لجذبه إلى صف المعارضة الليبية المسلَّحة لاحِقًا، فقد خُطِّطَ للأمر سلفًا.

قضينا تلك الليالي نواسي أنفسنا غير متنبِّئين بسوء المرحلة القادمة، أحد الجنود كان يملك صوتًا عذبًا دافئًا ما زلتُ أسمع صداه في أذني حتى بعد كل تلك السنوات حين يتلو على مسامعنا آيات من القرآن ليقطع علينا حبائل اليأس والقنوط، وآخر ظلَّ ينشد «غناوي عَلَم»، يرتجلها أو يستدعيها من حيث أتى، من حيث ترك مخطوبته...

«الصبر راه شين وزين... عليه كان يا العين تقدري

الصبر يا العين طبيب... حطيه في معاديل الغلا

لا تعاندي مولاك... علي عطاه يا عين اصبري».

آخر ليلة نمناها في العراء، بعد أن افترشنا التراب ببضع بطاطين مزَّقَتها حرارة الشمس وقضت على ألوانها القاتمة، توسَّدنا أذرعنا، والمصابون من بيننا توسَّدوا بعضنا الآخر، أبدَيتُ لعليٍّ استغرابي من كونه لا ينتمي لِلّجان الثورية، استغرابي كان بريئًا صادقًا، إلا أن جنديًّا اتَّكأ إلى جانبي نكزني بمرفقه ظانًّا أني أكمل ما بدأه منصور في الأيام السابقة، عليٌّ فهم قصدي، دائمًا فعل دون حاجتي للتبرير، العلاقة التي ربطتنا نشأت على حُسن النِّيَّة والثقة المطلقة، كصديقين نشآ سويًّا، وهذا ما لم يقترب من الحقيقة؛ فلا نحن من قبيلة واحدة، ولا حتى منطقة واحدة؛ هو من القرابوللي شمال غرب ليبيا، وأنا من الكفرة في جنوبها الشرقي، لا نملك نفس الفكر الوطني فما يعتبرها بطولات وطنية أعتبرها أنا هزائم وطنية، ولا نتقارب في العمر حتى؛ إذ إنه يكبرني بستة وعشرين عامًا، ولكن مَن قال إن الأرواح في ارتباطها تعترف بالحدود أو بالأعمار أو بالمنطق أصلًا؟

أشبع عليٌّ فضولي تلك الليلة، أخبرني بأنه آمن بالثورة قبل «اختراع اللجان الثورية»، وبأن شخصًا في مركزه لن يقحم نفسه –بكل تأكيد– بين ثلَّةٍ من المراهقين الذين وجدوا في شعارات الثورة قناعًا يقيهم من المحاسبة ويمنحهم الحجَّة للتطاول على القانون وتخوين من شاؤوا كيفما شاؤوا، فوجِئتُ بموقفه من كيانٍ يَدَّعي النظام الجماهيري بأنه المبشِّر بعصر الجماهير وبالنظرية العالمية الثالثة، سألته: «أليس (لا ثوري خارج اللجان الثورية*)؟»، سرح قليلًا بينما كانت سبابته ترسم مربَّعاتٍ

ومُثلَّثات على التراب ثم يمحوها، ظننتُ أنني أحرجته دون قصد فقرَّر ألَّا يجيبني، ولكنه فعل. «ثوريَّتي بَرهَنتُها بأداء واجبي في الجيش، وفق ما اقتضته حاجة بلادي، لا حاجة القذافي».

تنهَّد بعمق: «ثوريَّتي دفعتُ ثمنها مرتين: الأولى في حرب تشاد الأولى حين تركت زوجتي حامِلًا توشك على الوضع مُجازفًا بمستقبل مَن ببطنها، رغم استطاعتي في حينها إيجاد سبيل ما لاستبدالي بغيري، والثانية: في هذه الحرب، تاركًا ابنتي، وطفلًا آخر –لم يرَ النور بعد–، على شفير اليُتْم».

«كان عليك البقاء لأجلهم هناك، انظر إلى ثوريتك إلى أين قادتك».

بعد تفكيرٍ مليٍّ، متجاهِلًا ملاحظتي الأخيرة التي تفوَّهتُ بها متناسيًا حدود الاحترام الذي يفرضه فارق العمر والرتبة العسكرية، واصل حديثًا بدأه مع نفسه، مستمرًّا في رسم المثلثات والمربعات على الرمال ومسحها مرارًا وتكرارًا. «حسناء، أميرتي الصهباء، لم تشبهني في شيء، جاءت نسخةً مُؤنَّثة من جَدِّها»، نفض كفَّيه ممَّا علق بهما، عدَّل وضعيته

متكئًا على ظهره، متوسِّدًا ذراعيه خلف رأسه، متأمِّلًا صفحة السماء. «يوجعني أن الثمن الذي دَفعتُه لا فقط ابتعادي عنها، بل ندمي على حرمانها من حضني، لو مِتُّ؛ فلن تتذكَّرَني المسكينة بشيء».

«ألا تعيش معك؟».

«بلى، ولكنها إمَّا في حضن أمي، تنام وتستيقظ وتأكل في حضنها، أو مع والدتها في بيت جدِّها، لم يتسنَّ لي التعرُّف إليها عن قرب، لا أستطيع تذكُّر وجبة مُعيَّنة تحبها أو تعافها... لا أستطيع تذكُّر خطِّ يدها؛ فلم أجلس يومًا لمساعدتها في كتابة الواجب، أمها تتكفَّل بمتابعة واجباتها؛ فزوجتي سيدة متعلِّمة ومتنوِّرة و...»، تنحنح وكأنما أدرك أنه بحديثه عن زوجته يدخل منطقةً محظورةً لم نَعتَد نحن الليبيون اقتحامها؛ إذ لا يجوز للرجل أن يذكر زوجته أو يثني عليها أمام آخرين، إلا في حال كانت متوفَّاةً بالطبع، استشففت من نبرة صوته اشتياقه لها، استدركَ حديثه متجاهلًا ملاحظته الأخيرة. «وأمي تحتكر حسناء بقية اليوم... لم تنجب أمي إلا الذكور، حين جاءت حسناء اعتبرتها ابنتها، زاد من معزَّتها حُبُّ أمي وإيثارها لي من بين إخوتي...».

سكت قاطعًا على نفسه الاسترسال أكثر في الحديث، سألته عن عمرها.

«بعد أشهر قليلة ستُكمل عامها السابع (تنهَّد مجدَّدًا)، حين يقترب الأجلُ تتذكَّر أوقاتًا من عمرك ضيَّعتَها سهوًا، اعتقادًا بأن في العمر بقية لتعويضها، ولكنك تكتشف أنه كان هناك ما هو أهمُّ وأوْلى من شعاراتك، أهم من ثوريَّتك ووطنيَّتِك...».

ثم انقلب مُتَّكِئًا للناحية الأخرى، قاطعًا حبل فضولي. «تصبح على خير يا بزَّكة».

***

تحت سياط شمس الظهيرة، نُقِلنا برًّا إلى مدينة تُدعى «كلاعيط»، وفيها اصطففنا طابورًا طويلًا ينتهي إلى طائرة نقل عسكرية، اكتشفتُ حينها أن عدد الأسرى فاق ما توقَّعتُه، بشعورنا الكثَّة، وروائحنا النَّتِنة، وثيابنا الرَّثَّة، بعضنا نُقل بسروال داخلي وقميص عسكري خالٍ من الأزرار، بعضنا كان ينتمي للقوات التشادية «الصديقة»، التي استمرَّت في معارضتها لنظام الحكم في أنجامينا. بدا منظرنا مغريًا للصحافة الأجنبية التي اصطفَّت من جهة لتصويرنا، فيما اصطف الجنود التشاديون بفخر وعزة في ثيابهم العسكرية الغريبة، يمسكون بنادقهم رغم أننا عُزَّل من السلاح، ملتحفين بأوشحة رمادية بيدتها أشعة الشمس، مصطفُّون في الجهة الأخرى من طابورنا، طابور الذل، والذباب زاد المشهد بؤسًا؛ يُصرُّ على الوقوف فوق أنوفنا ونهشُّه برؤوسنا إذ رُبِطَت أيدينا خلف ظهورنا، أُمِرنا بالبروك على رُكَبنا، ثم بالزحف كالسحالي فوق الرمال الملتهبة، رُكِلنا، ضُرِبنا بالهراوات وأخمص البنادق، شُتِمنا، في مشهدٍ بدت رسالته واضحة إلى «طرابلس»، كنَّا قد اعتدنا الشتائم والإهانات والضرب خلال الأسبوعين السابقين، ولكنَّ العقيد عليًّا، والضباط ذوي الرُّتَب لم يعتادوه، وبدا أنهم لن يفعلوا.

امتدَّ الطابور نحو طائرة «ترنزال» فرنسية لنقلنا إلى أنجامينا، رحلة الأسر الأخيرة، فإمَّا منها إلى الوطن، أو إلى القبر، هذا ما فكَّرتُ فيه حينها، وتساءَلتُ: تُرى كم سيكون ثمن عودتنا إلى بلادنا؟ كم سيدفع لأجلنا «النظام»؟ تساؤلي هذا جاء متأخرًا حين أدركتُ كمَّ الأسرى الذين سبقونا منذ أشهر، وتُركوا قابعين في السجون، بيعوا بلا ثمن.

في الطائرة ساد الصمتُ إلا من أصوات المحرِّكات، وبعض الصحافيين الأجانب يحاولون بإنجليزية ركيكة –فهمنا منها أنهم فرنسيون– الحصولَ على سبق صحفي من العيار الثقيل، «الليبي المحتلُّ، بسلاحه الثقيل، تهزمه سيارات تويوتا وسط الصحراء!».

أحدهم جلس يحاور عليًّا، دون جدوى، تظاهر عليٌّ بعدم فهمه لأيِّ سؤال، تظاهر بعدم معرفته ما يُطلب منه، صدَّهم ببرود، رغم سيجارة فاخرة منحها له الصحفيُّ محاوِلًا كسبه، ظلَّ صامتًا ينظر بين الحين والآخر للصحفيِّ بنظرة جانبية ناعسة، منظره استفزَّني واستغربتُ إصرار الصحفي أمام هذه اللا مبالاة الواضحة. حين يئس منه التفت نحوي، ولم ينل مني أكثر مما ناله من عليٍّ، مع اختلاف السبب، فأنا حرفيًّا لم أفهم منه شيئًا، لا نظامنا التعليمي الذي أُلغِيَت منه العام الدراسي السابق مادة تعليم اللغة الإنجليزية، في قرارٍ عاطفيٍّ ساذج تمَخَّض عن الغارة الأمريكية على طرابلس وبنغازي، ولا بيئتي أهَّلاني لفهم أيَّة لغة أخرى عدا اللغة العربية، إلى جانب لغتي الأم –التباوية– التي مُنِعنا –رسميًّا– من التحدُّث بها خارج نطاق بيوتنا؛ باعتبار الجماهيرية هي دولة «عربيَّة»، سؤال واحد أجبته عنه بإنجليزية بسيطة مُحرَّفة: «سيڤينتين»، حين ظنَنتُ أنه يسألني عن عمري، رفع حاجبيه، أردف بكلمات لم أفهمها، ثم أعطاني قطعة شوكولاطة، تأمَّلتُها طويلًا بقدر اشتهائي لها، مقارنًا إيَّاها بالوضع المزري الذي أعيشه منذ أسبوعين، والوضع المزري الذي ينتظرنا في غياهب السجن، فقدتُ شهيَّتي، فتركتها على أرضية الطائرة حيث جلست، ثم ندمتُ لاحقًا.

عُصِبَت أعيننا فور وصولنا مطار أنجامينا، ونُقلنا في سيارات إلى السجن، عرفنا لاحقًا أن بعضنا –وكنتُ منهم– نُقِل إلى سجن القصر الرئاسي، فيما نُقل آخرون إلى سجن الشرطة العسكرية، قُذِف بنا بالرَّكل والضرب نحو زنازيننا، إلا أن عليًّا سُجِن في زنزانة انفرادية، أخبرَنا الضُّبَّاط من الأسرى السابقين، بأن السجن الانفرادي هو «ترف» يخصُّ الضباط ذوي الرُّتَب، ريثما ينتهون من التحقيق المفصَّل معهم، أدركتُ حينها تأثير الأسبوعين المنصرمين على علاقتي به، إذ شعرتُ أن جزءًا مني حُبِسَ في تلك الزنزانة الانفرادية، وكأنه ينقصني همٌّ آخر غير هَمِّ حبسي رفقة أحد عشرَ سجينًا غيري معظمهم سبقونا بأشهر.

استقبلَنا القدامى بأسئلتهم حول آخر التطوُّرات، وهل من أمل في عودتنا أم أن هذا آخر المطاف، امتقَعَت وجوههم حين أخبرناهم بسقوط جميع قواعدنا العسكرية، فرَّ مَن فرَّ في فايا، والبقية سواء في فادا أو وادي الدوم سقطوا بين قتلى وأسرى ومفقودين في كفن الصحراء. ساد الصمت في زنزانتنا وبقية الزنزانات، وبدا أنه سيستمرُّ للأبد، صمت الاستسلام والتأهُّب للأسوأ، صمتٌ أثقل على صدري، وزاده غياب عليٍّ في الزنزانة الانفرادية، ترى كيف يعاملونه؟ هل سيصمد كبرياؤه حتى خلال جلسات الاستجواب التي تستمر لساعتين أو أكثر كما أخبروني؟ خفتُ عليه من كبريائه الأحمق، وإصراره على صدق حُجَّتنا التي أقحَمَتنا في أتون هذا الجحيم.

امتدَّت عُزلَتُه شهرًا كاملًا، ثم أُخرج من زنزانته وكان قد دخل وقتها شهر رمضان، أُلقيَ به في زنزانة بها ضابطان آخران، تبعُدُ عن زنزانتي مسافة زنزانتين، وحين يختفي الحُرَّاس ننتهز الفرصة للاطمئنان على أحوالنا، بعد جولات التعذيب، والمرض، والخوف واليأس التي كانت تنتابنا، والجوع الذي ما عرفنا هل يجوز صومنا به أم أنه محضُ عذابٍ إضافي نكيله على أنفسنا! لا الماء كان يروينا، ولا الأرز القليل أو مسحوق القصب كان يُشبِعنا، حاوَلَ بعض السجناء الانتحار بموسى مُهرَّبةٍ ولم يفلحوا، إنما زاد عذابهم لإهمالنا من الناحية الطبية؛ إذ إننا لم نتمتَّع بحقوق الأسرى وفق معاهدة جنيف لمعاملة أسرى الحرب؛ وذلك لأن «القذافي» لم يعترف بنا حتى ذلك الحين.

***

نُقِلنا إلى سجن آخر أواخر العام 1987، كان يقع مقابلًا لمعسكر المعارضة، وهناك أمعنوا في تعذيبنا وفق الاختيار العشوائي، هناك ملأ القمل شعورنا الشعثاء ولِحانا، أصيب بعضنا في شهور الصيف بالملاريا وتوفي على إثره كثير منَّا، بعضنا أُصيب بالغرغرينا لإصابة سابقة لم تُعالج فتلوَّثَت، واضطرُّوا لقطع ساقه أو ذراعه، عام كامل لم نرَ فيه الشمس حتى تحوَّل البيض من بيننا إلى صُفرٍ، فقدنا أوزاننا، صحَّتنا، أسناننا، نظافتنا، حتى إننا لم نعُد نميّز هل لون جلابيبنا –التي ألبسونا إيَّاها– هو لونها الكاكي الأصلي أم هو لون القذارة المتراكمة عليها؟

فقدنا أيضًا الكثير والكثير من كرامتنا في انتظار اعتراف «القائد» بنا، كان برفقتنا سجناء على غرار عليٍّ، يؤمنون حتى الموت بأن «القائد» لن يخذلهم، وبأننا أبناؤه، وبأننا جيل الثورة المُعوَّل علينا لتحقيق الوحدة العربية التي يبدو أن ثمنها

باهظ. فقدَ أحدُ الضُّبَّاط في الزنزانة المجاورة أعصابه حين سمع نقاشاتنا: «أي وحدة عربية منك ليه! راهو ضباط الاستخبارات العراقية اللي حققوا معانا، سكِّر فمك إنت وايَّاه!». ليس هذا فحسب، فقد زدت على كلامه بعد أن عرفتُ بوجود مَن أنكر علنًا فكر «العقيد»، تجاهَلتُ حقيقة إن كان عليٌّ يسمعني، فصرختُ: «وحكومتا مصر والسعودية أيضًا يدعمون التشاديين علنًا بالاستخبارات والمال... هذا ما جنيناه من فكر العقيد!»... شخص ما –كرهتُ الاعتقاد بأنه عليٌّ– شتمني: «اخرس يا كلب!»، صعد بعض الدم الباقي في أوردتي نحو رأسي: «بسببه مات منا الآلاف، بعضهم قَتلًا، وكثير منهم عطشًا في الصحراء، حُرِموا حتى من الدفن! بسببه حُرمنا من أبسط حقوق البشرية لإنكاره لنا!»، صرخ الصوت مرة أخرى باختناق هذه المرة: «اخرس يا ابن الكلب».

من حين لآخر، كان يُخفِّف علينا وطأة السجن والألم والمشاحنات صوتُ الجندي تاليًا آيات من القرآن الكريم، عرفتُه من صوته، الجنديُّ الذي رافقنا في أسبوعَيْ الأَسْر لدى الكتيبة في الصحراء، أسأله عن حاله فلا يردُّ، لا يتفوَّه إلا بآيات من القرآن، تساءلتُ إن كان كذلك حتى مع مرافقيه في الزنزانة، وهل يفعل ذلك لأجل تثبيتنا أم لنيْل بعض الرحمة من الحُرَّاس التشاديين؟ تعلَّمتُ تحت سياط الأسر ألَّا أُحسن الظن، تعلَّمتُ أن للحقيقة وجهين دائمًا، وربما أكثر! بل إن الحقيقة المطلقة لا وجود لها، أسأله عن حاله فيجيب بعذوبة صوته:

﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[*].

سألته بثقة: «مَن هم؟ الليبيون في ليبيا، أم التشاديون؟».

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا. وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا. وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾[*].

لم أسأله المزيد، لا عن أي خيانة يقصد ولا عن أي إثم، كفى بحربنا وأسرنا وأوجاعنا ألمًا يتحمَّل وزره «الزعيم»، لم أُبالِ بقصده وانضمَمتُ فورًا في الأسبوع اللاحق لمعسكر المعارضة، الذي أطلقنا عليه اسم معسكر «الحرية»، غير عابئ بما سيحلُّ بعليٍّ ورفاقه «المؤمنين»، ولا حتى بقارئ القرآن الذي لم يلحق بنا، أُتخِمتُ ذُلًّا ورضًا، ولم يَعُد بوسعي الصبر أكثر لأجل عليٍّ، ومعه، كرهته ورأيت فيه «قذافيًّا» خُدعت بحنوِّه، سُحِرتُ بعملية إنقاذه لي، وفكَّرتُ حينها أن سحره قد انتهى، وهيبته قد تهاوَت في نظري، لم لا أحاول محاولة أخيرة إنقاذ ما تبقَّى مني وأنضمُّ إلى المعارضة؟ ربما نجحنا في اقتلاع القذافي والثأر لأنفسنا ولأصدقائنا! وإلا، فإن الموت قادم لا محالة، فلنستقبله بشرف المحاولة على الأقل، وببعض الكبرياء، وإن كان مصطنَعًا.

***

«كيف؟»، قُلتُها مختلطة بكثير من الدمع والمخاط حين احتضنتُ عليًّا إثر استقباله بحفاوة في معسكر «الحرية»، كانت صفعة للقذافي انضمام أهم ضُبَّاطه لصفوف المعارضة، شوكة ظلَّت باقية في حلقه حتى آخر يوم من عمره؛ إذ لم يتصوَّر أن يتخلى عنه بعضٌ من «حَوارِيّيه ورهبانه». انضمَّ إلينا عليٌّ بعدي بأسبوعين تقريبًا.

في المعسكر الجديد حيث سعينا لبناء جيش ليبي حرٍّ، وجدنا كل ما فقدناه على مدار عام منصرم: ضباطًا من ذوي الرُّتَب سبقونا وشجَّعونا على الانضمام، ووعدونا بطمأنة أهلنا عنَّا وعودتنا إليهم منتصرين، وجدنا الرعاية الصحية وبعض حرية التنقُّل وفق نظام إفراجٍ مشروط، مُرتَّب شهري وغذاء صحي بالإضافة إلى تمتُّعنا بوسائل النظافة الشخصية، لكن بدا جليًّا -رغم «الرفاهية» التي أوتيناها في المعسكر الجديد وحرمناها في الاعتقال- أن عليًّا انضمَّ لأسباب لا علاقة لها بكُفره، ولا بمغريات معسكر الحرية، عليٌّ لم يكفر بفكر القذافي، لم يكفر بالاشتراكية، ولا بالوحدويَّة ولا بالأُمميَّة، بل كفر بصداقته، لقد عارضه انتقامًا لتجاهُله وإنكاره، انتقامًا لكرامته التي لم تحتمل المزيد، وكان هناك جانبٌ آخر، متعلِّق بيأسه من العودة لزوجته وابنته اللتين تركهما لا تدريان أحيٌّ هو أم ميت، لعل استقراره في أنجامينا سيمكنه من جلبهما إليه بطريقةٍ أو بأخرى ليلمَّ شمل أُسرَته مجدَّدًا، لقد كان عليٌّ رجُلًا يقدِّس أسرته.

دُرِّبنا على أيدي قوَّاتٍ خاصَّة أمريكية لنصبح مغاويرَ، بتمويل سعودي، وتسليح عراقي، ودعم استخباراتي لوجستي أمريكي وفرنسي؛ إذ كان للقذافي أعداء كُثُر، وتمَّ تأطيرُنا سياسيًّا بجعلنا الذِّراع العسكري للمعارضة التي تتَّخذ من الولايات المتحدة مقرًّا لها، واتَّخَذَت من قاعدة وادي الدوم مقرًّا لبَثِّ إذاعي مسموع يصل إلى أراضي الجنوب الليبية مُحرِّضًا الشعب الليبي على الانتفاض ضد نظام حُكمٍ مستبدٍّ، كل ذلك كان تمهيدًا لحرب عصابات نرجو أن نسقط بها نظامه، بعضنا نُقِلَ للتدريب في الكاميرون والكونغو، ودُرِّبوا على أيدي -وتلك حقيقة لا يسعني إنكارها- مُدرِّبين من دولة إسرائيل المزعومة.

وبدا لي أن عليًّا نادمًا في كثير من المواقف، ندم في كل مرَّة وجد نفسه يتدرَّب على أيدي جنود أمريكيين يحملون شارة CIA، صارحني مرَّةً: «أما زِلتَ تشكُّ في صدق مزاعم القذافي لهذه الحرب؟ ألا ترى أن بلادنا -بالفعل- تحت تهديد عدوان أجنبي؟»، لم يعجبني كلامه؛ فقد وخز جزءًا ما مني، رفضتُ الاستجابة والاقتناع، ما الجدوى؟ فقد دخلنا معسكر «الخونة»، وعند هذه النقطة، تُغلق أبواب التوبة. أضاف في محاولة يائسة لإقناعي: «وفق ما أراه، فالقذافي صَدَقَ على الأقل حين استبدل اسم (حبري) بـ (عبري)». لقد كان صادقًا في هذه بالفعل، لكنك حين تتحوَّل إلى معارضٍ لنظام حكم دكتاتوري؛ فأنت ترهن عنقك للشيطان، من أجل بارقة حرية أو انتقام.

آخر جولات ندمه كانت حين سمعنا بزيارة ياسر عرفات لسجن «المؤمنين» ووعده لهم بهُدنَةٍ قريبة وتبادُل للأسرى، كان هذا في العام 1990، قرب رحيلنا جميعًا عن الأراضي التشادية.

ندِمَ عليٌّ مرارًا وتكرارًا، رغم كثرتنا على قِلَّتهم؛ فقد كان عددنا ثمانمائة وخمسين معارضًا، فيما لم يَزِد بقية الأسرى الباقين على «العهد» عن نصفنا.

***

بالنسبة إلى معسكر المعارضة، لم تتعدَّ أخبار سيطرة إدريس دِبّي على بعض مناطق الشمال التشادي كونَها زوبعةً في فنجان لن تلبث أن تخمد سريعًا، رغم علمنا بأنه رئيس أركان القوات التشادية، يقود انقلابًا عسكريًّا ضد «حبري». انتابتنا بعض مشاعر القلق حين اكتشفنا أن سيطرته كانت بمساعدة ليبية، فدِبّي كان مسؤولًا عن ملفِّنا العسكري والسياسي بحكومة «حبري»! انقلابه بدأ بتواطؤٍ فرنسي، وارتبنا من أن تكون تلك إشارة على سقوط ورقة «حبري» عند النظام الفرنسي؛ لتماديه في طغيانه وجبروته حتى مع المقرَّبين إليه.

مشاعر القلق –بالطبع– كانت خوفًا من بيعنا إلى النظام الليبي، ووأد معارضتنا المسلَّحة قبل حتى دخولها حيز التنفيذ؛ فالسياسة لعبة مصالح.

بلغ خوفنا ذروته عصر يوم 30 نوفمبر 1990، إذ جُنَّ «حبري» وزبانيته، وصَلَتنا أنباء عن إعدامات بالرصاص انتقامية وقعَت خلال الساعات الأخيرة من ذلك اليوم في حقِّ بعض مساجين «حبري» المعارِضين، وفي حق بعض الأسرى الليبيين أيضًا، سمعنا أصوات الرماية المتقطِّعة والانفجارات تأتي من داخل سجن الأسرى، شاهدنا دخانًا متصاعدًا من هناك، اختلفنا فيما إذا كانت عمليات التصفية مستمرَّةً أم أنها قوات «دبّي» وصَلَت أخيرًا على بُعد أميالٍ منَّا، واختلطت في نفسي مشاعر الخوف من المستقبل بمشاعر الذنب والحُزن إزاء رفاق الأَسْر، رغم اختلافي معهم وازدرائي لفكرهم.

عليٌّ كان أسوأ حالًا مني وهو يفكر في رفاقه الضباط الذين تركهم هناك، لم أخاطبه ولم يخاطبني تلك الأمسية ونحن ننتظر أخبارًا جديدة تأتينا، راجين أن يبوء انقلاب «دبّي» بالفشل لمصلحة الانقلاب الذي نُخطِّط له ضدَّ القذافي، حتى إن كان «حبري» أيضًا عدوًّا لشعبه! إذ وفق ما تقتضيه المعارضة في أي بلد، فإن عَدوَّ عَدوِّي هو صديقي، وإن كان لا يختلف كثيرًا عن عدوِّي.

في اليوم الثاني من ديسمبر 1990، تُرِكنا وحيدين في المعسكر، فرَّ الجميع إثر هرب «حبري» من أنجامينا ودخول دِبّي لها «فاتحًا»، أعلَنَّا حالة الاستنفار خوفًا من هجمةٍ نُردَى فيها لمعارضتنا نظامًا صديقًا للانقلابي الجديد، ثمَّنا لدعمه على الأقل، وبلَغَت حالة التأهُّب أوجَها في اليوم التالي، حين لمحنا ثلاث طائرات «إليوشن» تحمل شعار الخطوط الجوية الليبية تحوم في الأجواء التشادية فوق رؤوسنا، لتستقرَّ أخيرًا في مدرج طائرات غير بعيد عن معسكرنا، قرب السجن الذي يضمُّ عددًا لا بأس به من رجال الجيش، توقَّعنا أن تُمطِر علينا تلك الطائرات حجارة من الجنود المأمورين بتصفيتنا، وألَّا يَذَروا منَّا حيًّا واحدًا؛ فصوَّبنا نحوها صواريخ سام محمولة، ولكنها لم تكن إلا لغرض إجلاء مَن بقي حيًّا من الأسرى الليبيين الذين لم يستسلموا لنداء المعارضة، نداء الحرية! عادوا للعبودية بأرجلهم، ووفق نظرة عين العقيد عليٍّ التي خبرتها، فقد تمنَّى لو كان معهم، ربما ليس حُبًّا في صديقه الذي أنكر وجوده، بل فقط لأجل زوجة مُعلَّقة، وابنة بقِيَت لثلاث سنوات على شفير اليُتم، وطفل لا يدري أذَكَرٌ هو أم أنثى.

في اليوم السابع من الشهر نفسه، نُقِلنا بواسطة طائرة تتبع القوات الجوية الأميركية إلى زائير، لم تقبل رئاستها أن نكون سببًا في خلق عداء مع «العقيد القذافي»؛ فنُقلنا إلى كينيا، حيث تكرر سيناريو الخوف والتبرُّؤ من دعمنا ولو كانت إقامتنا على شرف الاستخبارات الأمريكية، فلم يتبقَّ أمامنا وأمام الحكومة الأمريكية إلا نقلنا إلى أراضيها.

في الطائرة التي نقلتنا إلى أراضي الولايات المتحدة حيث سنبدأ حياة جديدة مدنية، أطرق عليٌّ ثم باح: «نحن مضطرُّون الآن للبداية من الصفر، وكأننا وُلِدنا للتوِّ».

ظننت أنني أطمئنه: «سننضمُّ للمعارضة السياسية».

«أتدري ماذا يعني امتهان السياسة؟».

«ماذا؟».

«يعني امتهان الكذب والتلفيق والنفاق».

«يا عليّ»، قلتها هكذا بعد أن تكفَّلَت السنوات الثلاث برفع الكُلفة بيننا: «عِشنا في كذبة اسمها النظام الجماهيري لواحدٍ وعشرين عامًا! فلنجرِّب كذبة أخرى!»، لم يُعلِّق، كعادته آثر الصمت مثل كل مرة تختلط عليه فيها الحقائق، أو ربما الكذبات.

اختفينا من المشهد التشادي، وبقينا في المشهد الليبي معروفين بـ «الكلاب الضَّالَّة» إلى قيام الثورة.

---

* شين: قبيح.

* تليبب تشاد: جعلها ليبية.

* واحدة من مقولات القذافي.

* النساء آية 104.

* النساء الآيات من 105 إلى 107.

ثورة بلا أنبياء

بَرْكة: الانتحار البطيء

أميركا، من ديسمبر 1990 إلى ديسمبر 1994

هذه هي الرسالة التي وصَلَت لوالدك من نسيبه –كما ترى– رسالة حاسمة، قاطِعةً حبال الأمل. من الممكن اعتبار رحلة والدك مُعارضًا سياسيًّا لا عسكريًّا قد بدأت من تاريخ وصول هذه الرسالة.

أربعة أعوام تامَّة، تلك كانت رحلته في برزخ المعارضة، متذبذبًا بين العودة والبقاء، كنت موقنًا أنه سيرحل، لكن ليس بهذه الكيفية. أراد العودة إلى بلده، بعد حصوله –عن طريق بعض المعارف القدامى– على ما اعتبرها ضمانات لعدم التعرُّض له ومساءلته حين تطأ قدماه أرض –ما أصرَّ على تسميته– الوطن، لكن أصبع القنَّاص كانت أسرعَ منه.

بعد الوصول لأراضي الولايات المتحدة، استغرقنا الأمر شهرًا للاستقرار، كلٌّ في ولاية ومدينة، بيت جديد، ووطن جديد.

سيطر الحماس على معظمنا حين وطئنا البلد الحلم: أميركا. شتمنا بلدنا، شتمنا القذافي وزبانيته في كل مرة اكتشفنا فيها جهلنا التام بالعالم الأول، جهْلنا في مواجهة آلة نشتري منها علبة عصير أو رقائق «تشيبس»، والأسوأ في مواجهة آلة الدَّفع النقدي! كرهتُ سذاجتنا أمام لغةٍ مُعظَمُنا لا يُتقِنها، وكرهت ارتباكنا أمام محطات مترو الأنفاق والقطارات! تُعساء الحظ أمثالي الذين لم تدُس أقدامهم –قبل تشاد– حدودًا تتخطَّى قريتهم استفزَّتهم جاهليَّتهم وأربكتهم، أثارت سذاجتُهم غضبَهم، ولم يجدوا غير الشَّتم بألذع وأقبح الكلمات التي انتزعوها من عمق ذاكرتهم، وسيلةً يواسون بها أنفسهم.

علمنا هناك بعد سنوات أن ملفَّ تشاد سُوِّي سلميًّا عن طريق الأمم المتحدة بعد الهزيمة التي سحَقَت آلاف الليبيِّين، أتساءل: لِمَ لَمْ يتَّخذ ذاك النظام مسلكًا سلميًّا منذ البداية؟ كانت التسوية لصالح تشاد، وبهكذا –رسميًّا– استوَت دماء الليبيين برمال الصحراء التي اختلَطَت بها، واحتضَنَت رفاتهم، بعضهم دون دفنٍ حتى. قيل بأن هناك تعويضات خصَّصها النظام الليبي بعد تلك السنوات لأهالي أُسَر الشهداء والمفقودين، تعويضات عن أرواح تاهت عبثًا!

«لوكِربي» والحصار الذي فُرض على النظام الليبي لم يكن مفاجأة بالنسبة لنا، لم نرَ أبعد من كونها قرصةَ أُذُن لنظام يُصرُّ أن يزيد في تحدِّيه، فيما اعترض عليٌّ جزئيًّا عليها: «لن يعاني من هذا الحصار إلا الليبيُّون البُسطاء».

«أحسن! لعلهم ينتفضون ضدَّه!». كنتُ مُهيَّجًا بأفكار متعلِّقة بالثورة والحرية، تأفَّف مني عليٌّ واستطرد: «شعبٌ جائع لا يُعوَّل عليه... ثورات الجياع لا تزيدهم إلا جوعًا، وقد ثُرنا من قبل لأجل السيادة ولأجل الفقراء، فماذا كانت النتائج؟». رصَّ سيجارته كمن ينتقم منها ناظرًا نحوي نظرةً مُتحدِّية، مضيفًا بثقة: «ولا أعني جوع البطون فحسب... بل الجوع أيضًا إلى المعرفة، الجوع إلى الإحساس بالوطنية، الجوع إلى القِيَمْ والمبادئ...».

«ألم ينتزع منهم هو كل ذلك؟!».

«ربما... حتى وإن كان هو السبب، فقد حصل ما حصل، الآن لن تنفع الثورة بمفهومها المسلَّح ضد منظومته».

ربما! إجابته الاعتيادية حين أُوجِّه اتهامًا مباشرًا لزعيمه، نعم ظلَّ زعيمَه رغم انضمامه إلى المعارضة السياسية تحت جناح الولايات المتحدة الأمريكية. ولاؤه المبطَّن هذا أدانه، وجعله محلَّ شكٍّ في الوسط المعارض هناك، رغم أن بعضهم كان يومًا ما –أيضًا– من رجال الزعيم! اتَّهَمه أحدهم مرَّةً بتجسُّسه لصالح القذافي، زعم أن عليًّا طَبَّب جراحه، وتحَصَّل على وعود بالغفران مقابل الوشاية برموز المعارضة. كنَّا نخشى الاغتيالات التي يقوم بها جنده المتنكِّرون بأقنِعَةٍ مدنيَّة في كثير من دول العالم، بالتحديد حيث توجد خلايا معارضة لنظامه ولشخصه.

المهم أن شُغلَه الشاغل بعد استقرارنا كان استجلابَ زوجته وابنته، قلِقَ إزاء كونهما مُعتَقِدَتيْن بموته، أسرَّني مرَّةً بخوفه من عواقب تسليم أهله بموته، «ستكون مصيبةً لو زوَّجوها وفق أعرافنا لأحد أشقَّائي!». يصمت لبرهة في كل مرة ثم يضيف مطَمئنًا نفسه هازًّا رأسه بقوة: «لا أظنُّ غزالة ترضى»، تلك المرحلة التي ينطق فيها الرجل فينا باسم زوجته أو حبيبته كانت المرحلة التي عرفنا فيها أننا بدأنا نتخلَّص من جذورنا.

تكرَّرَت هواجسه طيلةَ تلك المدة التي انتظر فيها ردًّا من نسيبه المقيم في دمشق، أخبرني أنه أرسل لأسرة زوجته رسالة ينبئهم فيها بما حصل معه، ويطلب من والدها إرسالها وابنتها إليه، واستعمل عنوان أخيها في دمشق الذي حفظه عن ظهر قلب لِكَمِّ الرسائل التي كانت زوجته ترسلها لأخيها ويرميها هو في البريد لأجلها، نعم، هذه الرسالة التي أعطتك إيَّاها السيدة غزالة.

قلق من تأخُّر الرد، اعتكف في بيته، وكره الخروج مع القِلَّة من بيننا، نحن الأسرى السابقين الذين استقرُّوا هنا بمدينة أطلانطا، بعضنا أقام بمدن أخرى، ولكن معنا هنا بنفس ولاية جورجيا، كنَّا نجتمع بين الحين والآخر، ونتبادل الذكريات بسخرية –غالبًا– عن أيام الحرب ومعسكرات الأَسْر، نراجع مواقف غريبة حدثت مع حُرَّاس، أو لمعتقلين، ونضحك! ونستغرب من ضحكنا! ونتساءل؛ ربما كان الضحك آخِرَ أسلحتنا لمواجهة انهزامنا تجاه أنفسنا، لمواجهة حقيقة تحوُّل كبريائنا وكرامتنا إلى بخارٍ تلاشى هناك في صهد الصحراء.

حتى وصله الرَّدُّ في مايو 1991، فكَّر يومها جديًّا في الانتحار، ولقد همَّ به لولا فضولي الذي دفعني لزيارته ومقاطعة خلوته...

قرَّرتُ زيارته مساءً؛ فقد بدا لي غارقًا في وحل من القلق والاكتئاب، يبعد عنَّا كل يوم وخشيت أن يصل لعمقٍ أعجز عنده عن سحبه إلى الحياة مُجدَّدًا. شهقتُ حين رأيتُ معصم يسراه ملفوفًا بقطعة قماش كانت قميصًا داخليًّا قبل أن يصبغها الدم، لمحتُ على طاولته الدائرية القصيرة إلى جوار سريره مظروفًا منزوعًا، ورقتين، وسكينًا! سألته عمَّا فعله بنفسه، أشاح بيده كاذبًا بصوت مرتَعِش: «بسيطة... حادث غير مقصود».

تأمَّلتُه فهرب إلى مقعده...

«نعم... حاوَلتُ التَّخلُّص من نفسي الشقيَّة... حاولتُ وفشلت، خفتُ! أنا جبان! ربما لو مِتُّ في الأسر كان أهونَ عليَّ ممَّا أنا فيه الآن... غزالة تزوَّجَت!».

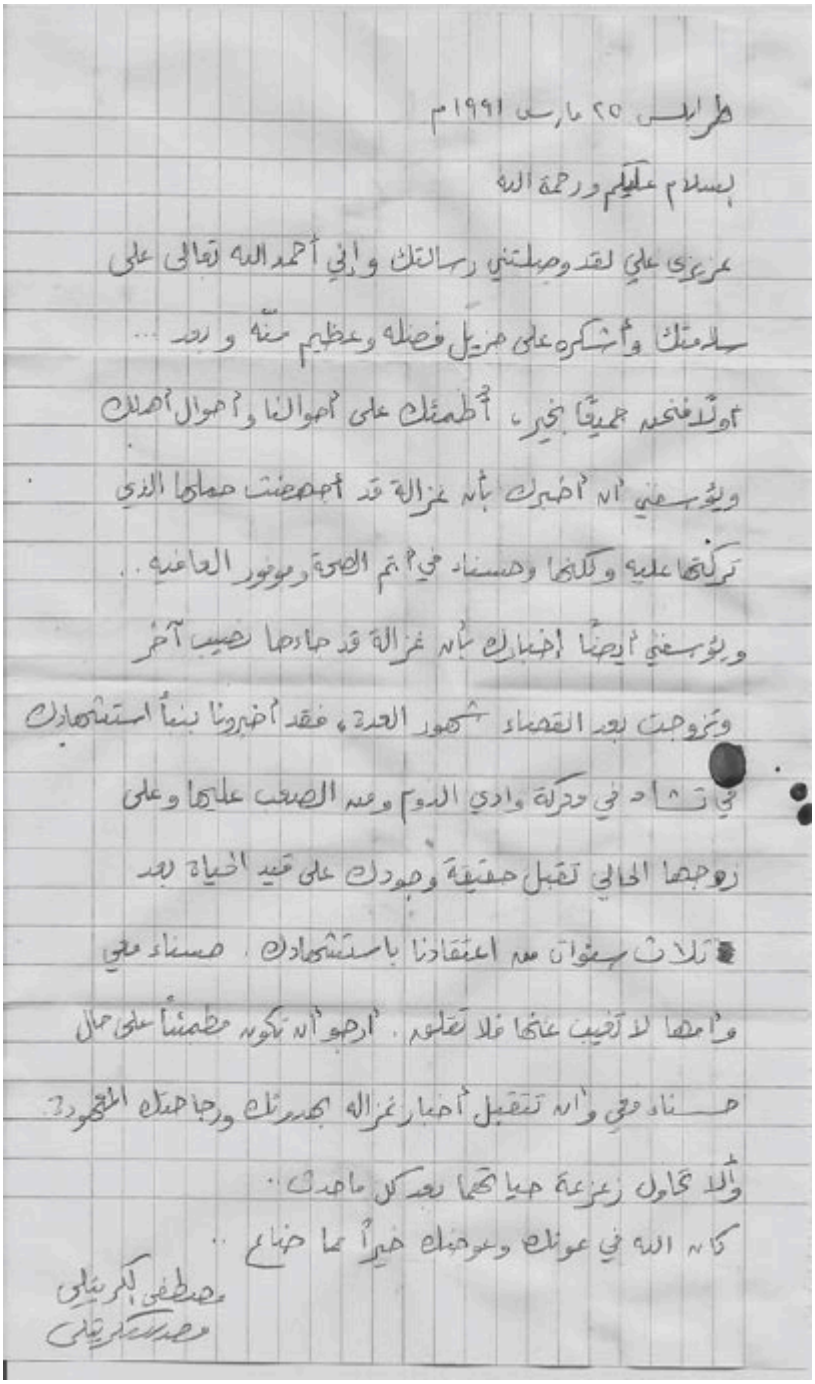

طرابلس ٢٥ مارس ١٩٩١م

السلام عليكم ورحمة الله

عزيزي علي لقد وصلتني رسالتك وإني أحمد الله تعالى على سلامتك وأشكره على جزيل فضله وعظيم منّه وبعد...

أود أن أطمئنك على أحوالنا وأحوال أهلك فنحن جميعًا بخير.

ويؤسفني أن أخبرك بأن غزالة قد أجهضت حملها الذي تركتها عليه وكلتاهما وحسناء هي أتم الصحة وموفور العافية.

ويؤسفني أيضًا إخبارك بأن غزالة قد جاءها نصيب آخر وتزوجت بعد انقضاء شهور العدة، فقد أخبرونا نبأ استشهادك في تشاد في معركة وادي الدوم ومن الصعب عليها وعلى زوجها الحالي تقبل حقيقة وجودك على قيد الحياة بعد ثلاث سنوات من اعتقادنا باستشهادك. حسناء هي وأمها لا تغيب عنها فلا تقلق. أرجو أن تكون مطمئنًا على حال حسناء هي وأن تتقبل أخبار غزاله بصبرك وجاهدك المعهودة.

وألا تحاول زعزعة حياتهما بعد كل ما حدث.

كان الله في عونك وعوضك خيرًا مما ضاع.

مصطفى الكريتلي
مصطفى الكريتلي

وكانت المرة الأولى التي أراه ينشج فيها! أحبَّها جدًّا، هذا ما عرفته يومها. لم أصدق أن هذا الذي يبكي لأجل امرأته هو نفسُ الرجل الذي نهَرَني منذ ثلاث سنوات: «خلِّيك راجل!» حين تأفَّفتُ وانهرتُ عطَشًا وتعبًا بين كثبان الصحراء.

«مَن لديَّ هنا؟ لمن سأعيش هنا؟ لماذا اخترتُ أن أعيش؟! مثلي كان عليه أن يموت في الأَسْر!».

لم يذكر لي ما حلَّ بابنته إلا حين سألتُه: «عند جدِّها... لا أصدق أنها رضِيَت تركها، لماذا؟ لتتزوَّج من رجُلٍ آخر!... لقد كان غياب ابنتنا عن مخدعها بسبب احتكار أمي للبنت أكبر همومنا، كان المُنغِّص الأكبر على حياتنا، الحاجز الذي نفَّرها مني ودفعها مرَّاتٍ ومرَّات للمكوث طويلًا لدى والدها مُتجاهِلَةً شوقي لها! متجاهِلةً شوقها لي... كيف نسيت شوقها لي؟! أنا متأكِّد من أنها تحبني! هل كانت تتظاهر باللهفة؟!...». مسح ما تسايل من عينيه وأنفه بمعصمه حيث الخرقة الملفوفة، تأمَّلها قليلًا وواصل حديثه لنفسه: «لا أفهم! كيف سمح إخوتي ووالدتي بذلك؟!».

عرفتُ من حالة الهستيريا التي انتابته تلك أكثر من اللازم عن حياته السابقة. حرصتُ على المبيت معه، أخفيتُ كلَّ الأدوات الحادَّة، وربطتَيْ العنق الوحيدتين عنده.

غلبني النعاس متأخرًا جدًّا تلك الليلة، لم أنوِ النوم، ولكنني فعلتُ، استيقظت فَزِعًا بعد نومي بساعتين، سمعت جلبةً في أدراج ما سمَّيناه مطبخًا، في ذلك الاستوديو الصغير الذي أقام به عليٌّ، خمَّنتُ أنه يُفتِّش عن سكين ما، هرعتُ نحوه قبل أن يكتشف المكان الذي أخفيتُها فيه...

«عمَّ تبحث؟».

«عن قلم... كان لديَّ قلم هنا في أحد هذه الأدراج».

ومع حركته العصبية في تقليب الأدراج ونَكْتِها، انتابني الشَّكُّ: «ما الذي تريده بالقلم؟ فجرًا؟!».

«سأكتب رسالة إلى أسرتي، سأطلب منهم كشف ما لم يكشفه نسيبي، يجب أن تعود لي زوجتي وابنتي».

سرَّني تجاوزه فكرة الموت، وبدأتُ أتظاهر بالبحث معه بين حاجياته المبعثرة فوق سريره وبين ملابسه...

«من رأيي، انسَ أمر زوجتك... واحمد الله أنها تزوَّجَت من رجل غريب لا من أحد إخوتك كما خشيتَ سابقًا، أم نسيت! عليك الآن التفكير في وسيلة تأتي لك بابنتك».

توقَّف عن البحث، نطَقَت عيناه المنتفختان بالرد. يئس من القلم، يئس من الحديث معي أكثر، أو هكذا بدا لي قبل أن يتوجَّه إلى سريره ويلقي نفسه بظَهْره عليه، نال منه التعب، أخبرني باستسلام وسكينة: «لا... إمَّا كلتاهما، وإلَّا فلا واحدة منهما... لن أحرمها حسناء مُجدَّدًا». نام فورًا، ونِمتُ بعد تأكُّدي من غيابه التام وسماع شخيره.

***

استيقظتُ عصريَّة اليوم التالي بألمٍ في عنقي وأسفل ظهري، أيقظتني جلبة أخرى، كدتُ أفزع مُجدَّدًا لولا خروجه لحظة استيقاظي فورًا من الحمَّام، جرحه مُطبَّبٌ بلاصِقٍ بدل الخرقة، حالقًا ما نبت من لحيته، و-للمفاجأة- شاربه أيضًا! مرتديًا قميصًا بُنِّيًّا فاتحًا، وبنطلونًا بنيًّا بدرجة أغمق، لم أنسَ طلَّته تلك لأن القميص والبنطلون كانا هديَّتي الأولى إليه من المنحة

التي حصلنا عليها باعتبارنا لاجئين سياسيين، بدا شابًّا صغيرًا، أصغر منه يوم سقوط وادي الدوم. وقف أمام مرآته يثني أطراف ياقة القميص، ثم نظر إليَّ عبر انعكاسه في المرآة:

«انهض انهض... دعنا نخرج؛ فقد سئمتُ الجدران».

ذُهِلتُ لتناقُضِ مزاجه الشديد بفاصلٍ زمنيٍّ ساعات معدودة! شككتُ إن كان في الأمر خدعة ما؛ أيرغب في التَّخلُّص من وجودي والانفراد بنفسه مُجدَّدًا؟ ولكن هذا لا يُعدُّ حافزًا كافيًا للتظاهر بمداواة جرحه وتغيير ثيابه، بل حتى إزالة شاربه الكَثِّ الذي حرص على إطالته قليلًا عند طرفي شفتيه وكأنما ليخفي ابتساماته الشحيحة، وقرَّر الآن فجأة ألَّا يخفيها مُجدَّدًا! هل جُنَّ الرجل؟!

«ما بالك تتأمَّلني؟ هيا انهض. اغسل وجهك وعدِّلْ ثيابك! ولنخرُجْ».

طغى الاستغراب عليَّ فأخرسني، نزلنا من البناء الذي يمكث فيه عليَّ ولا يبعد كثيرًا عن سكني، في زقاق لا تكثر فيه الحركة إلا للمشاة، ولكنه يتصل مباشرة مع طريق رئيسي، عند وصولنا للناصية وقف مواجهًا لي، واضعًا يديه في جيوبه، وكأنما ليُخرِجَني من حيرتي ممَّا جرى في الساعات الأربع والعشرين المنصرمة...

«هيَّا... تكلم وأخبرني أين كنتم تتسكَّعون في الأشهر القليلة الماضية؟».

قالها بابتسامة نادرة، واضحة، صريحة، انتقَلَت لي عدوى بهجته –وإن كانت مُفتعَلة– فورًا، هبَّ جسدي بطاقة افتقدتها مع غيابه...

«Welcome back Ali!»

ارتعَشَت ابتسامته قليلًا، أظنُّ أن لكنتي التي بدأت في التَّحسُّن، واختياري للرَّدِّ عليه باللغة الإنجليزية صدَمَه قليلًا، فأردَفتُ:

«Hello! We are in the USA now!»

تجاهل ملاحظتي، حكَّ ذقنه لبرهة متأمِّلًا زرقة السماء، عاقدًا حاجبيه من قوة أشعَّة شمسٍ نبَّأت بصيفٍ حارٍّ، ثم أشار لي بالانطلاق.

أخذته لمطعم يملكه رجُلٌ ليبيٌّ، كنتُ قد بدأت منذ بضعة أسابيع بالعمل لديه، هو جدك لا غير، لقد صادف أنه لا يبعد أكثر من كيلو متر واحد عن مقر سكني رفقة اثنين آخرَيْن، أحدهما قرَّر العودة لليبيا بعد ثلاثة أشهر لم يتأقلم فيها، اختار الراحة والأمان اللذين يمنحهما الجَوُّ الأُسَريُّ مقابل تجربة الحرية في بلد الحريات! عمومًا، لقد عاد مع اختلال بسيط في عقله، ولا أدري أوصل حقًّا لأهله أم تاه في شوارع بنغازي! أمَّا الآخر فقد استطاع بعد عدة محاولات أن يعمل بسيارة

أجرة، استغرقه الأمر بعض الوقت للتعرُّف على قوانين وشوارع المدينة، ثم تزوَّج من أمريكية ورحل إلى ولاية أخرى، ولم أسمع عنه بعدها.

ما لم يعرفه والدك مني بل استنتجه بنفسه، أن جدَّكَ ينتمي للمعارضة السياسية التي جنَّدَتنا في تشاد لانقلابٍ عسكريٍّ، عرف هذا بعد عدَّة مرَّاتٍ زُرنا فيها المطعم وجالسنا فيها جَدَّكَ، سهَّل تعارفهما الخلفية المعلوماتية الممتازة التي امتلكها جَدُّكَ عن أبيك بسببي، وهو ما ندمتُ عليه لاحقًا، في الواقع، ما زلتُ نادمًا عليه!

وضعُ جدِّك الماليُّ الذي هاجر به، ومناهضته للحُكم العسكري المنقلب على المَلَكيَّة التي تقلَّد فيها مناصب رفيعة؛ كانت أسبابًا كافية لينضمَّ جَدُّكَ لأوَّل نواة تنظيم حزبي مُعارِض رسميًّا في الولايات المتحدة... لم يؤسِّسه، ولكنَّه مَوَّل، وبذلك صار عضوًا أساسيًّا فيه وعمودَ أساسٍ جنبًا إلى جنب مع المؤسِّسين، لكلمته ألف حساب، أوامره تُنفَّذ، واقتراحاته أيضًا... لم يعد للحزب أي وجود اليوم؛ فخلافاته الداخلية قضت عليه، تَكالُب أعضائه على المناصب بشكل مسعور بعد سقوط القذافي كانت أسبابًا كافية لكشف هشاشته.

وفي إحدى تلك الزيارات جالسَنا جدَّك رفقة صديق سوريٍّ مُعارِض لنظامه هو أيضًا، في محاولة -كما استنتجتُ- للتأكُّد من تخلُّص والدك من ولائه للنظام الليبي؛ فقد حرص بنفسه طيلة تلك السنوات على اقتناص الشخصيات التي اعتقد أنها ستُفتِّت القذافي وتهدمه من الداخل، سيَّما إن كانت شخصيات مُقرَّبة إليه. لم يكن عليٌّ غبيًّا، أيَّدَهما في كل نظرياتهما وسخطهما وأقرَّ بعبقريتهما بشكل مُبالَغ فيه، أدهشني! تلك المرة لم أميِّز أكان جدِّيًّا أم هازئًا؟ كنت متأكدًا أن انضمامه للمعارضة المسلَّحة لا يعني أبدًا ولاءه للمعارضة السياسية، لقد كان يمقت فيهم استخدامهم لنا كأداة للوصول للحكم!

ذلك الرجل السوري الأربعيني، وجد في عليٍّ فَهمًا لظروف دمشق وحكاياتها، أوضح له عليٌّ فيما بعدُ بأن له نسيبًا هناك، وأنه زارها مرة واحدة رفقة زوجته لمدة لم تتجاوز أسبوعًا واحدًا عقب زواجهما، أربكه وأربكني معه ذِكرُها؛ فصدمتُه فيها ما زالت طازجةً، كُسِرَت نظرتُه فكَسَرتُ الموقف:

«قيل لي إنَّكَ يا أستاذ عدنان تحفظ الشِّعر العربي وتتقن نظمه وقوافيه».

«كنت... الغربة أنستني الشِّعرَ وعروضه، ولم أَعُد أحفظ إلَّا أيسَرَه...». ابتسم قليلًا قبل أن يواصل: «في الحقيقة... انقلَبَت عندي موازينُ عِدَّةٌ، حتى نوع الشِّعر الذي كنت أدمنه كرهته... لم تعُد تغريني قصائد الفخر والغزل والهجاء، بقدر ما تأخذني قوافي جلد الذات وندب الواقع المعاصر! (ضحك ثم التفتَ لعليٍّ مجدَّدًا) أتُحِبُّ الشِّعر يا أخ عليّ؟».

عاد بذهنه من مكان سحيق عقب ذكر اسمه، هزَّ رأسه موافقًا، موافقًا لكل ما يقال، وكأن فعل الموافقة قرار اتخذه يوم نجاته من الانتحار: موافق، أيًّا كان الكلام، أيًّا كان السؤال.

«مَن تُفضِّل في الشِّعر إذًا؟».

«الشِّعر؟!».

«ألم تؤكِّد فورًا حُبَّكَ للشِّعر؟!».

«آه... أجل... لا أذكر... أي شيء... كل شيء...».

ساد صمتٌ مُشبَع بالإحراج، حاولت كسره مُجدَّدًا دون دراية مني بالطريق الذي ستُفضي إليه محاولاتي:

«بالنسبة لي أستاذ عدنان، لا أحفظ من الشِّعر إلا ما درسناه في المدرسة، وما حفظناه تكفَّلَت الحرب بمسحه من أدمغتنا، لماذا أتكلم عن الشِّعر! حتى القرآن الذي كنتُ أحفظ نصفه نسيته ولم أعُد أذكر إلا قصار السور كأطفال الحضانة».

ضحكنا مجاراةً لمحاولتي في إنعاش الجو، تلك المرحلة كانت مرحلة «الأجواء المشحونة»، مرحلة «النفسيات المحطَّمة»، كنا تائهين، نحاول مساندة بعضنا والاتِّكاء على بعض، ومداراة جروح بعضنا البعض.

طلب جدُّكَ من عدنان إلقاء بعض الشِّعر، آخر ما حفِظَ منه، طلب ذلك مع إشارة بعينه نحو عليٍّ، فهمناها بعد أن بدأها عدنان...

«يا سيِّدتي:
ماذا يبقى من إنجيل الثورة،
حين تُقرِّر قَتلَ مُغنِّيها؟
ماذا يبقى من كلمات الثَّورة،
حين ستمضغ أكبادَ بَنيها؟
ماذا يبقى؟
حين تخاف الدولة من رائحة الوَرد،
فتُحرق كلَّ مَراعيها...
ماذا يبقى من فلسفة الثورة،
حين تخاف طلوع الشمس،
وتنتفْ ريشَ كَناريها؟
ماذا يبقى؟
ماذا يبقى؟
ماذا يبقى؟

حين تَبولُ الثَّورةُ فوق كلامِ نَبِيِّها...».

وكأنَّهما باتفاقٍ مُسبَقٍ قرَّرا تمرير رسالة ما لعليٍّ. لا تفهمني خطأ، فجَدُّكَ لحظة تعرُّفِه بوالدك لم يُضمِر له أي سوء، كل ما في الأمر، أن الريبة كانت تأكله، لا هو فحسب، كلهم تقريبًا فيما عداي. تلك الأبيات النِّزاريَّة تكفَّلَت بإخراج عليٍّ من حالة «الموافق على كل شيء وأي شيء»، تفوَّه بقنبلته بعد سحب غيمةٍ من سيجارته وبنظرة فاحصة انتقَلَت بين عدنان وجدِّك:

«ماذا عن الأنبياء الجُدُد الذين أرادونا زبانيةً لثورة جديدة ضد الثورة التي أكَلَت أكباد بنيها؟ ألن تبول ثورتُهم فوق قبورنا؟ ألن تأكل أكبادَنا وقلوبَنا؟ أَمِن أحدٍ يضمن لنا ألَّا يحدث ذلك؟ سيد عدنان، ألا تعيد الثورات نفسها؟!...

كُنت هناك يومًا ما، في قلب الثورة، أو سَمُّوها انقلابًا؛ فالأمر لا يُشكِّل فرقًا بالنسبة لي طالما رحَّب بها الشَّعبُ وهلَّل، وأستطيع الآن أن أؤكِّد لك بعد تلك التجربة الفاشلة بأن الثورة فعلٌ يتَّسِم بالعاطفة العمياء، عاطفة عمياء جماعية، وهذا النوع من العواطف يتَّسم بالفوضوية؛ إذ ينسى الثُّوَّار –أو مَن يحلو للبعض تسميتهم بالأنبياء الصغار– ينسون آمالهم التي ثاروا لأجلها سعيًا وراء ثأر أو كرسيٍّ... ومن الممكن جدًّا لثائرٍ أن يرتدي عباءةَ مَن ظَلمه، فيزيدها سوادًا، ويزيدها اتِّساعًا! أليست مفارقةً مُبكِيةً مُضحِكةً في آنٍ معًا؟!».

أشعل سيجارة أخرى، ووسط الصمت الذي سيطر على ثلاثتنا الجالسين معه أضاف بمرارة:

«أراهن بحياتي يا سيد عدنان، ويا حاج مفتاح، أراهن بحياتي وهي كل ما أملك حاليًّا (ازدرد ريقه)... أراهن أن الثورة التي تنوون تغذيتها وتأملون أن يستجيب لها الشعب لن تَسلَم من الظلم، ربما لن تبول فوق نبيِّها، ولكنها ستتبرَّز عليهم... أتفهمونني! ستتبرَّز هنا (وأشار بسبَّابتيْه فوق رأسه) في منتصف رؤوسهم تمامًا قبل أن يبلغوا غايتهم منها... هذا إن لم تفعل ذلك فوق تراب قبورهم الطازج، الرطب، إن كان ثمَّة أنبياء أصلًا...

أمَّا أنتم، فأراهن أنكم لن تعودوا لبلادكم هذه التي تناضلون لأجلها، وحين يسقط القذافي (أو أيًّا كان النظام الدكتاتوري الذي تعارضونه) فستسقط معه المساعدات الدولية التي لا تمنُّ بها عليكم الدول المعادية له إلَّا رغبةً في التخلُّص منه شخصيًّا، وحين يذوي سينسونكم، ليس ثمة حرية يسعون منحها لِلِّيبيِّين، ووهم الديمقراطية (انقعوه واشربوا مَيِّته)، ستتهاوى وعود المساعدة والدعم والتمويل والتنمية والنهضة، وستجدون أنكم وحيدون، لن تستطيعوا تقبُّل وطنكم على حقيقته، ولا أظن أنكم بالسذاجة التي تجعلكم تتخيَّلون وطنكم تُربةً خصبة جاهزة لزراعة مشاريعكم التنموية العملاقة، لا... سيكون هناك الكثير من الخراب والجدب، في الأرض وفي النفوس... أراهن على ذلك...

لا هذا فحسب، بل أراهن أنكم لن تعترفوا وقتها بفشل ثورتكم كما أعترف أنا الآن... هل ستجرؤون! أبدًا... فالخراب الذي ستتسبَّبون به سيكون أكبر من شجاعتكم كلكم مجتمعين... هل تُعوِّلون بسذاجة على عمليات نوعيَّةٍ تافهة التأثير أمام سُلطَة هذا الرجل وجهازه المخابراتي كحادثة باب العزيزية البائسة في 1984؟! دعوني إذن أؤكِّد لكم ألَّا مُتضرِّر

منها إلَّا أولئك المساكين الذين استُعمِلوا كبيادق، سَهَّل عليكم تجنيدهم، ولاؤهم الصادق للوطن، ولاؤهم الذي لا مكان له في أرصدتكم المصرفية حول العالم...

الشعوب المُتعبة التي تحيا على صفيحٍ عائمٍ فوق حِمَمٍ بركانيَّةٍ لا تتغير بين ثورة وضُحاها، هذه شعوب بحاجة لتغيير داخليٍّ، تغيير تدريجي تُزهر فيه الأرواح الهائمة أوَّلًا... على أية حال –ولا تعتبروا كلامي يعنيكم شخصيًّا بالذات أنت يا حاج مفتاح– فإنَّ للثورات وللشعارات لصوصًا أيضًا، لا يمكنكم التنبُّؤ بهم إلَّا بعد فوات الأوان... ليس بمقدوركم اكتشافهم؛ فقد يكون اللص مختبئًا هنا...»، وأشار نحو صدره.

انتهى من وضع رهاناته وابتسم وأطفأ سيجارته وكأنما ليعلن نهاية الحديث، أو ارتياحه بإخراج كل تلك الحمَم التي بقِيَت طوال سنوات –على ما أحسب– تحرق فؤاده.

لم يعرض عليه أحدٌ الانضمامَ علانية، ولكنه فهم اللعبة، وتعرَّف بحَدْسِه على ما جَهِلتُه أنا طيلة أشهر سبقَت تلك الجلسة... أطفأ سيجارته التي أشعلها للتوِّ، تجرَّع ما بقي من فنجانه، أجابهم قبل أن يسألوه، لم يمهلهم حتى متَّسَعًا من اللحظات لالتقاط دهشتهم:

«عمومًا، أنا موافق، متى ما أردتموني وكيفما أردتموني، فردًا بينكم... لم يَعُد لديَّ ما أخسره أصلًا».

انتحر عليٌّ بالفعل يومها، كنَّا شهودًا على ذلك، لقد قتل عليٌّ عليًّا الذي عرفناه قبل الحرب وخلالها... أُدرك الآن، وبعد كل هذه السنوات حين أذكر ذلك اليوم، أن للانتحار أوجُهًا عِدَّة، قد نقتل أنفسنا، ولكن الروح لا تَخرُج جُملةً واحدة، بل ذَرَّة ذَرَّةً، كساعةٍ رمليَّة قُلِبَت للتوِّ.

***

سريعًا، بنوايا مُبيَّتة من الجميع، تمَّ تزويج والدك بوالدتك السيدة فاطمة، عليٌّ كان صهرًا مناسبًا لأسرة محافظة كأسرة فاطمة؛ فهم رغم اغترابهم قبل تعرُّفنا إليهم بعَقدَيْن لم يذوبوا تمامًا في المجتمع الأمريكي، كغيرهم من العرب هنا، عرب قلبًا، أميركيُّون قالبًا، ولكنهم لا يسمحون بمصاهرة الأميركيين قلبًا وقالبًا! خاصَّةً حين يتعلَّق الأمر ببناتهم.

فاطمة وجدت فيه فرصةَ زواجٍ لن تتكرَّر، وقد كانت حينها على مشارف ثلاثينيَّاتها، والِدُكَ ربما أراد بها تعويض نفسه عن أسرته التي فقدها، أما جَدُّكَ، فقد كان زواج عليٍّ من فاطمة عربونَ ولاءٍ تامٍّ له وللمعارضة، أو هكذا أراد منه. تعدَّدَت النوايا والزواجُ واحدٌ، تمَّ بعد تعرُّفنا على جَدِّكَ ببضعة أشهر، وبعد انخراط عليٍّ في صفوف المعارضين لنظام القذافي، وإدراجه في القائمة السوداء.

زواج عليٍّ من فاطمة كان بطاقةَ الضمان التي أتاحَت لعليٍّ الاطِّلاع على أسرار وغياهب الحزب المعارض، تنسيق أنشطتهم، اجتماعاتهم، الائتمان على صندوقهم والتواصُل مع مُموِّليهم، التواصل أيضًا مع سفارات الدول المناهضة للقذافي،

والأهمُّ من كل ذلك: العِلمُ التام بأسماء كل الضالعين في نشاطات الحزب المعارض، سواء كانوا ليبيّين أو غير ذلك. بقِيَت مكانته وصلاحياته سرًّا بين رؤوس الحزب؛ خوفًا عليه من آذان الأمن الخارجي المزروعين في كل البلاد، ومن رصاصهم أيضًا، أمَّا معرفتي بهذه التفاصيل فهي نتيجة العلاقة الوطيدة التي ربطتني به.

أردتُ مَعيَّته حتى في هذه الخطوة، ولكنه رفض بشدَّة، ذكَّرني حَزمُه معي بوالدي -رحمه الله-، منحته صلاحيات الأب معي، وأعني بالصلاحيات هنا التحكُّم بقراراتي الخاصة، هذه صلاحيات طبيعية في ثقافتنا، نحن الليبيّين الذين نشأنا هناك، تمامًا كما كان يفعل معك جَدُّكَ أحيانًا، وهي رغم سلبيَّتها إلا أنها -وفق منظورنا- تعني أن هذا الأب يحبُّ أبناءه، ويخشى على مستقبلهم، فيتدخَّل في قراراتهم وفق ما يراه صوابًا من خبرته في الحياة.

«نحن أُممٌ لا تخشى التغيير، أي تغيير... وهذا -على الأرجح- أمرٌ جيد! ولكننا يا صديقي غير مُستعدِّين لتحمُّل نتائج هذا التغيير! هل مستعدٌّ أنتَ له؟! هل مستعدٌّ لتحمُّل كل ما سينتج من إسقاط هذا النظام؟ فالنتائج يا عزيزي لن تعجبك! سيكون الوضع أسوأ إن تزعَّمَت المشهدَ وجوهُ المعارَضة التي قابلتُها حتى هذا اليوم، فهُم ليسوا خيرًا منه! وإن تمَّ لهم ما يسعون له، فلا تتوقَّع أن تعود البلاد دولةً بسيادة ونهضة قبل سنوات، بل ربما عقود...

ثُمَّ لا تنسَ أننا شعبٌ لم يُتَح له مُتَّسَع من الوقت ليُجرِّب معنى دولة مدنيَّة حديثة يحكمها القانون، وهذا وحده كفيل بإحداث فوضى لن يكون من السهل لملمتها إلَّا على أيدي شُرفاء لا يحملون ولاءً إلا لبلادهم، وسيكون من الصعب العثور عليهم وسط السَّيْل».

بقدر ما حمل لي تصريحه هذا تناقُضًا بين اعترافاته -أخيرًا- بالفوضى التي كانت تعصف ببلادنا، وقناعاته وما همَّ بفِعلِه، بقدر ما أخافني، واليوم، حين أتابع أخبار البلاد التي لم تعُد إليها، ولم يعُد إليها أيٌّ من أصحابنا الذين انخرطوا وتورَّطوا في إسقاط النظام لتحريرها والعودة إليها، حينها أفهم ما كان يعنيه عليٌّ، وأتساءل الآن حقًّا: لماذا لم يعودوا ليعمروها بعد انهيار ما آمنَّا أنه السبب في تأخُّرها عن جيرانها؟ لماذا اكتفوا بالمشاركة على استحياءٍ عن بُعدٍ؟ لماذا لم يواصلوا نضالهم لأجل هذا الوطن وهو اليوم أحوج إليهم من الأمس؟

بالعودة إلى زواج والديك، فقد جئتَ مبكِّرًا مستعجلًا في شهرك السابع، وكأنك على دراية بما سيلحق بوالدك وقرَّرت أن تغتنم معه كل لحظة تبقَّت من حياته. ملَكَ عليٌّ الأرضَ وما عليها حين رُزق بكَ، لم يكن مستعدًّا للتخلِّي عنكَ، دَعْ عنكَ ما قيل، فأُمُّكَ حسَّاسة تجاه هذا الموضوع، ولا ألومها، أراد العودة لتسوية أموره مع زوجته، أراد لك العيش مع أختك هناك، ولكن جدَّكَ -كما تعلم- لم يرضَ بذلك، غضب وسرح بغضبه إلى المنطقة التي اتهمه فيها بالخيانة والتآمر والتخطيط المسبق لانضمامه والتجسُّس عليه وعلى رؤوس المعارضة، رفض جدُّكَ سفركما مع والدك رغم ما أبدته فاطمة من موافقةٍ على استحياء وتردُّد. قرَّر عليٌّ العودة، عازمًا وضعَ جَدِّكَ تحت سُلطَة الأمر الواقع، إلا أن الوقت لم يسعفه. لقد أحبَّكما كما أحَبَّ أسرته هناك، رأيت ذلك في عينيه يوم ولادتك.

***

يظنُّ بعضنا أننا دفعنا ثمن وطنيتنا بما عانيناه في حرب تشاد وما بعدها، وكأنَّ الوطنية سلعةٌ لها ثَمَنٌ، بل ينادي البعضُ بصوتٍ غير مسموع بعدُ بتعويضنا عن سنوات الأَسْر والاغتراب، ولكي أصدق معك يا آدم، أظنُّ أن الليبيين الذين عجزوا عن الهجرة في تلك السنوات أو في هذه السنوات هم مَن يحتاجون إلى التعويضات، ولعلَّكَ بعد رحلتك إلى مسقط رأس والدك تدرك ما أعنيه.

وها أنا ذا لم أحاول العودة إلى الديار، حتى بعد مقتل القذافي بأربع سنوات، ليس هناك ما يمنعني، ولكن أيضًا ليس هناك ما أعود لأجله، لستُ مستعدًّا لقلب حياة أطفالي، إنهم أميركيُّون، مثلك تمامًا، ولكني على عكس جدِّكَ؛ لم أغرس فيهم شعارات الوطنية والانتماء، وتركتُ لهم حرِّيَّة اختيار انتماءاتهم؛ إذ ما الذي سيدفعهم لتحمُّل الحياة في بلدٍ مُناقِضٍ تمامًا –مادِّيًّا واجتماعيًّا– لهذا البلد؟ أنت تقول إن ليبيا وطنك الأم، ولكن كيف للوطن أن يكون أُمًّا حين لا تجد في حضنه الراحة، السكينة، الاطمئنان، والأمان؟

لعل راحة ضميري تكمن في عدم انخراطي بصفوف المعارضة هنا، لم أنادِ بإسقاط النظام، ولم أساهم في ذلك بأي شكل، هذه سلبيَّةٌ نصَحَني بها والدك وتَبِعتُها على مَضضٍ في شبابي، أمَّا اليوم، أدرك تمامًا أنها كانت الأمر الوحيد الذي أدركتُ فيه عينَ الصواب في حياتي كلها، بالتأكيد أنا مُمتَنٌّ لجدِّكَ الذي وفَّر لي فرصة عملٍ كمُشرِف في مطعمه، مهنة أعتاش منها وأتزوَّج بها بعد ترقيتي وخبرتي في هذا المجال، حتى أصبحت –كما ترى– ذراعَه اليمنى هنا، ولكني لم أطمع يومًا في المزيد، ولم أقتَتْ من وطنيَّةٍ أدَّعيها قبل سقوط النظام، ثم أنفضها بعد سقوطه.

ومن تجربتي، بإمكاني أن أؤَكِّد لكَ أن الوطنية كثيرًا ما تكون وهمًا إذا ما نطق بها سُكَّان العالم الثالث، فهم إما من صنف العاجزين عن الهجرة فلا يجدون إلا شعاراتها يعلِّقونها على صدورهم لإيهام أنفسهم أن هناك سببًا لبقائهم في أوطانهم (واللي ما طال العنقود قال عنه قارص)، أو صنف المغتربين والمنفيِّين، الذين اكتشفوا معانيَ حقيقيَّةً لآدميَّتهم في غُربَتهم، ولكنهم جُبَناء، يخشون الاعتراف بأنهم ما عادوا بحاجة إلى أوطانهم، فالغربة جُرفٌ عميق إذا ما قفزت إليه لا يعود بإمكانك الخروج منه. وهناك صنفٌ ثالث، الوطنيُّون الذين يترجمون وطنيتهم بلُغةِ حساباتٍ جارية في البنوك، سواء كانوا مقيمين في الوطن مستفيدين من النظام، أو مقيمين خارجه معادين للنظام، هؤلاء هم أسوأ «الوطنيِّين».

السنوات التي عشناها هنا ذُقنا فيها طعم الحرية، بالنسبة لي اعتبرتها حرِّيَّةً من نظام استبدادي كاد يودي بحياتي عبثًا، غيري تَحَرَّر حتى من مبادئ وشعارات القومية هنا في حضن أميركا، وآخرون تحرَّروا من أخلاقهم وعقولهم ودينهم سعيًا وراء جنَّةٍ سرابيَّة، كلما لاح لهم الوصول، وجدوها في أفق جديد... خشيتُ على والدك تلك الأيام بعد أن عرفتُ شُربَه للمُسكِرات وارتياده لبعض الحانات أحيانًا، رغم حفاظه على صلاته وصيامه! تناقُضٌ أربكني ولم أجد له تفسيرًا إلا النكاية بكثير من المعارضين الذين كانت المعارضة بالنسبة لهم تحمل أيديولوجيات دينيَّة بشكل لم يستسِغه عليٌّ، ولم أفعل أنا

أيضًا... ولكن نكايته بَدَت لي مُراهَقَة لا تليق بشخصه، غير أني تعوَّدتُ منه بعد هجرتنا هكذا انزلاقاتٍ لا تفسيرَ لها غير الفوضى والضياع الذي تمكَّن منه.

هنا تَحرَّر من قناعاته كلِّها، تخلَّى عن التفكير في الوطن رغم انخراطه في صفوف المعارضة الذي أيقنتُ لاحقًا أنه كان شكليًّا، مجرَّد محاولة منه للاندماج في حياة مناقِضَة تمامًا لحياته السابقة، ظنَّ أنه تحرَّر من ماضٍ لن يعود، ولكنه عاد في جلسة اجتمعنا فيها ببعض العائدين من زيارةٍ لليبيا، إذ كان لنا أصحاب يساعدون المعارضة سِرًّا دون الانضمام الرَّسمي لها حتى لا يُحرموا من زياراتهم لأهاليهم في ليبيا، كانوا يعودون منها مُتخمين بهدايا تحمل روائحَ لسببٍ ما بقينا نشتاق إليها عازِلين شوقنا هذا عن شوقنا للعودة: أكياس نايلون مربوطة ومليئة بالبسيسة والزُّميطة*، علب مُحكَمة الإغلاق برائحة نفَّاذة تحوي لحم العيد المقدَّد، علب أخرى صغيرة تحوي خليطًا من القليَّة* وحلوى الملبّس والمكسرات، ذلك الخليط الذي كان يُوزَّع في الأفراح ولا أدري أما زالوا يوزّعونه اليوم أم تابوا عن هذه العادة واختلقوا غيرها، ورُبَّ* غمَّسنا فيه تلك الأمسية مع العصيدة التي صنعَتها سيدة البيت... والكثير الكثير من الصُّور وأشرطة الكاسيت، بعضها تسجيل لخطابات القذافي لغرض استخدامها مادَّةً إعلاميَّةً ضده، كُتب عليها -تمويهًا- عناوين أغانٍ أو تلاوات قرآنية، وبعضها بالفعل أغانٍ كانت رائجةً في تلك السنوات أو أغانٍ قديمة تحمل إلينا معها ذكريات ظَنَنَّا أننا نسيناها.

وبعضها كانت لبرامج إذاعيَّة مرئيَّة أو مسموعة برَزَت في فترات مُعيَّنة، أحدها كان لبرنامج مسموع، اشتهَرَت السيدة التي تقدِّمه، حقَّق نجاحًا في الأوساط الاجتماعية، أخبرونا بأنه البرنامج الذي حرَّك الإذاعة وأعاد لها منبرَها في تلك الآونة، بعض الناس يرون فيه أملًا في بلادهم، أثار فضولنا ما سمعناه عن البرنامج على لسان أحد أصدقائنا الذي سجَّل بنفسه بعض الحلقات أثناء وجوده هناك، فطلبنا منه أن يُسمعنا.

أتى بمسجِّلَته واضعًا فيها الشريط، ساد الصمت حتى بدأ صوت السيدة ينساب، صوتًا غليظًا فيه بحَّة وقورة، رحَّبَت بالمستمعين بلهجةٍ لَحَنُها يبتعد قليلًا عن لحن اللكنة المحلية لأهالي طرابلس، استرعى اهتمام عليٍّ ما يسمع فيما عُدنا إلى الصور، تناهى لسمعي صوت السيدة تقرأ بعض الرسائل التي تصلها على بريد الإذاعة طالِبةً النُّصح والمشورة، وحين بدَأَت باستقبال الاتصالات أسكتَنا عليٌّ:

«هشهشهش!»...

سمعنا المكالمة الأولى التي انتهت بباقات الشكر والعرفان للسيدة خلف الميكروفون؛ «شكرًا أبلة غزالة، ربي يخليك»...

لم أفهم ما الذي يثير اهتمام عليٍّ للدرجة التي يلصق فيها أذنه بالمسجِّلة غائبًا عنَّا بالكلية، وضعها فيما استمرَّ صوت السيدة واتصالاتها عبر الأثير، توَجَّه بحاجبين منعقدين نحو صديقنا صاحب التسجيل، نطق بصوتٍ شبه مبحوح:

«هل تحفظ اسم هذه السيدة كاملًا؟».

«طبعًا! هي هناك شخصية عامَّة، اسمها غزالة الكريتلي».

امتقع وجه عليٍّ، وتذكَّرتُ حينها فقط أنه اسم زوجته، نظر نحوي محاوِلًا مداراةَ ما بدا جليًّا للحضور، حاوَلتُ صرف النظر عنه وبادَرتُ بأسئلتي نيابةً:

«هل لديك خلفيَّة عن عمرها أو وضعها الاجتماعي؟ ألا يمكن أن تكون من زبانية القذافي؟»، محاولًا إيجاد مبرِّر لفضولي، التفتُّ وعليٌّ باهتمامٍ نحو صديقنا الذي لم يقتنع بسؤالي واستشعر أمرًا مريبًا بخصوصها...

«لا أظنُّ»، أجابنا بنظرات مرتابة انتقلت بسرعة بيني وبين عليٍّ، «سيرتها نظيفة، وهي محبوبة من عامَّة الناس، لديها ابنة واحدة كما سَمِعتُ، تقيم معها وحيدتين في بيت والدها المتوفَّى منذ عام، وسط طرابلس؛ هذا لأنها أرملة، يُشاع أن فقيدها قُتِل في مأساة وادي الدوم، ولكني لم أتمكَّن من معرفة اسمه وإلَّا سألتكم عنه فلا بُدَّ وأن تكونا قد تعرَّفتما إليه».

«عفوًا! تقيم وابنتها وحيدتيْن؟ ألم تتزوج بعد فَقْدِ زوجها؟».

«لا أعتقد... أختي شديدة الإعجاب بها، أخبرتني مرارًا وكأنها تعرفها عن قُربٍ بأنها وهَبَت حياتها لابنتها ولرسالتها الإعلامية، ولم تقبل الزواجَ، رغم العروض التي تلقَّتها».

قفز عليٌّ من مقعده مستأذنًا مُسلِّمًا بعجلة، رغم إلحاح صديقنا والبقية على بقائنا واستغرابهم هبَّة عليٍّ المفاجئة. لحقتُ به، وعند الباب عاد طالبًا من صديقنا الاحتفاظ بالشريط دون تبريرات، ابتسم هذا ومنحه إياه ببساطة دون أي تساؤلات. في ذلك اليوم، عاد عليٌّ لنفسه التي حاوَلَت الانتحار يومًا ما، ولكنَّه بدل أن يُفكِّر في الانتحار مُجدَّدًا، قرَّر العودة لغزالته وحسنائه، هذا بعد تأكُّده من آخرين لاحقًا بطُرُقٍ ملتوية ومدروسة عمَّا سمعناه عنها، وأصبحت معضلته في إقناع والدتك، وفي كيفية انسحابه من تنظيم المعارضة بسلام، والحصول على صكِّ الغفران من القذافي قبل الوصول؛ كي يتمكَّن من وطء الأراضي الليبية. تَحرَّر عليٌّ في أمريكا من كل الأفكار التي قيَّدَته طيلة سنوات عمره رجلًا ناضجًا، تحرَّر من كل المشاعر القومية والوطنية الجيَّاشة، احتفظ فقط بمشاعر الحب تجاه أسرته، وسعى أخيرًا لاستعادتها.

***

قرار العودة كان خيارَ انتحارٍ لم يختره عليٌّ عن وعي، هذا القرار تحديدًا ما تَسبَّب بمقتله، قد لا تستوعب ذلك، ولكن لم يُقتل عليٌّ بأمر من القذافي، ولا من زبانيته؛ إذ إنه تَحَصَّل سِرًّا على وساطة أمنية ووعدًا بالمغفرة من القيادة، لم يخبر سواي بذلك، لم يكن ينوي العودة للجيش، أراد أسرته فقط لا غير، عزم على تعويض زوجته السابقة عن سنوات زواجهما قبل حرب تشاد، وعن السنوات التي اعتبرت نفسها فيها أرملةً، تساءل كثيرًا عن سبب كذب والدها، وإن كانت هي وراء هذه الكذبة. كانت لديه الأسباب الكافية التي تجعله يؤمن إيمانًا قاطعًا أنها استحسَنَت غيابه ولم ترغب في العودة إليه، أخبرني أنه لن يعيدها لبيت أهله، وأنهما سيعيشان في بيت مستقلٍّ، وأنه لم يَعُد يعنيه في الحياة إلا الاجتماع بزوجته

السابقة، «حب حياته» كما كان يقول، دون أن يكرِّر الظلم في فاطمة، قال إنه تعلَّم الكثير، وأنه سيبدأ حقًّا حياة جديدة يكون فيها مرتاحًا، هناك في ليبيا التي كانت تعاني الحصار في تلك الآونة... أجل!

قرار عودته كان في الواقع ضربةَ حَظٍّ في صالح النظام هناك، لماذا سيقتله إذًا؟... المتضرِّر حقًّا يا آدم... أو مَن توَهَّم أن سيتضرَّر من عودة عليٍّ لوطنه... كان التنظيم... أجل، إنهم المعارضون... فقط لا غير... قتلوه، وأشاعوا بأن خارجيَّةَ القذافي وراء مقتله...

لا تنظر إليَّ هكذا، لم أعلم بالأمر قبل حدوثه، إيَّاكَ أن تشُكَّ في وفائي ومحبَّتي له! ولا أعرف حتى القاتل، أقتَلَه أحدهم أم استأجروا واحدًا؟ لم أَرَ القاتل، ولكن أظنُّ بأنني سَمِعتُه بالصدفة حين هَمَمتُ بدخول مكتب جدِّكَ... صارحتُ جدَّكَ لاحقًا فأقرَّ لي، واستحلفني بحياتك دفن السِّرِّ...

بينما كان القاتل يجهِّز مسدسه المزوَّد بكاتم الصوت، كان جَدُّكَ يحاول إقناع رفيقه –وهو واحد من أكبر رؤوس المعارضة– بالعدول عن هذا القرار، لم يكن القتل قرارَ جَدِّكَ، ولكنه تسبَّب فيه نتيجةَ غضبه على والدك، نقل شكوكه وتخوينه واتهاماته كلها لزعامته، دون أن يفكر مليًّا، دون أن يتريث أو يمنح فاطمة حق الاختيار. أخَشِيَ على نفسه بزعم أن عليًّا سيشي بأسرارهم أم أنه كان أبًا رافضًا لفكرة فراق ابنته وفراقك؟ لا أحد يمكنه الجزم.

دُفِنَت هُويَّة القاتل مع جدِّكَ... أمك فاطمة لا عِلمَ لها بتورُّط أبيها في الأمر، وتعتقد كغيرها بأنه –بالفعل– ضحيَّةَ الأمن الخارجي في نظام القذافي.

أخبَرتُكَ مرارًا وتكرارًا بالعدول عن هذا الكتاب لهذا السبب، أمامك خياران: إمَّا مواصلة ما بدأته وإدانة جدِّكَ وتحطيم ما تبقَّى من أُمِّكَ، بقصدٍ منكَ أو دون قصد، أو نسيان الفكرة من الأساس. فكرة أن تنهي كتابك بما شاع عن مقتل والدك على يد الأمن الخارجي وقتَها قد يضعك في موقف حرج؛ إذ سيطالبك أنصار النظام السابق بالأدِلَّة التي تثبت تورُّطَه في اغتيال العقيد عليٍّ حسب زعمك، وهذا ما لم تحصل عليه خلال رحلتك، كما أخبرتك قبلها.

ارحم نفسَكَ يا بُنَيَّ... لا تبكِ آدم... ارفع رأسك، لا تدفنه بين كفَّيكَ وكأنك ارتكبتَ جريمة... ارحم جفنيك من غِلِّ أصابعك... قُم واسمع نصيحتي، ادفِنْ كتابك واغفر، كُنْ كأختك التي غفَرَت لجَدِّها –كما أخبرتَني– وإن تباين الذنب، فأنتما تتشابهان، حُرِمتُما من نفس الأب لمحبَّةٍ مُفرِطة أو خوف مُبالَغٍ فيه من جدَّيْكما، أليس كذلك؟ ولكنك لن تملك تجاه الرجل الذي ربَّاكَ وجعلك رجُلًا إلَّا المغفرة.

---

* الزُّميطة: سويق.

* القلية: رز مقليّ.

* رُبّ: نكتار التمور، لا يُشرب بل يُغمس بالسويق أو عصيدة الدقيق.

الحريــة

ربما هو المطر الذي انفجَرَت به السماء منذ يومين ما حرَّض قلبي على الإمطار منذ أسبوع، وقبل تلقِّي رد توماس. القلوب أيضًا تمطر، تمطر علقمًا لا يُنبت إلا المزيد من الأسى... وربما ليس المطر فحسب، ربما هي رغبتي في العودة إلى منطقة الراحة حيث لا أنتظر ردًّا ولا وُدًّا... انتهيتُ من عملي في ترجمة الشهادات، وتلقَّيتُ ردَّ توماس المصدوم، وراقت لي نصيحته.

ستتوهَّم سارة أن عملي بنصيحة توماس جاء خضوعًا عند رغبتها، وربما تحاول التودُّدَ لي مُجدَّدًا، ولا أعلم هل سأجرؤ على ردِّ القسوة والجفاء بالمثل انتقامًا لنفسي أم لا؟ فأنا ما زلتُ رغم عنجهيَّتها، غرورها وكبريائها الوهميّ، ما زلتُ أحبُّها... أودُّ فقط لو أعرف هل مشكلتها هي تخبُّطها بين أفكار متناقضة؟ سبتمبرية أم فبرايرية مثلًا؟ فهي تراوغ ولا تقول! وهذا طبيعي بالنظر إلى سنواتها الست عشرة حين قامت الثورة في 2011 وانقلَبَت الموازين في البلاد، وانقسم الشعب على نفسه، انقسَمَت المدينة والحي والشارع، وحتى الأسرة... طوفان لم يجرؤ سابقًا أحدٌ على تخيُّله، نعم، مجرَّد تَخيُّله كان أضحوكة... أهي ليبرالية أم محافظة؟ عقلانية متطرِّفة، أم ميتافيزيقية مستفزَّة؟... عاشقة أم... غير ذلك؟ كم تشبه ليبيا هذه البنت.

دائمًا تحدث الأمور على هذا النحو: يصنع الكبار لنا خنادق تفصلنا، يخلقون المشاكل من العدم، ونمضي نحن الصغار وقتنا في ملء هذه الخنادق بالأوحال بدل ردمها وجسرها! نُصرُّ على تلويث كل ما نقترب منه، قال لي هشام مرَّةً واصفًا البلاد بالسفينة، بأنها مثقوبة من كل ركن، ورغم هذا يُصرُّ بحَّارتُها على تبادُل اللوم والعتاب بدل الالتفات لسَدِّ الثقوب وإصلاحها، وأن المشهد هناك يبدو كمسرحيَّةٍ هزليَّة لا ينقصها إلا كاميرا المصوِّر، أمَّا كتابتها وإخراجها فقد تكفَّل بهم القدر... وصف ما أحاول فِعلَه هنا بالتقاطَةٍ ذكيَّة بالكاميرا، كاميرا التاريخ الذي يُسجِّل بلا رحمة، فلا ينتظر المتحاربين كي يفيقوا من سكرتهم، ولا السلبيّين كي تنتهي غفوتهم.

يقول هشام بأننا أحوج ما نكون إلى النظر للأمور كما هي، دون تحيُّزٍ لفئة، دون تحيُّز لطَرَفٍ، وبغَضِّ النظر عن المسمَّيات: ثورة أو انقلاب، ثوار أو خوارج، كرامة أو فجر أو أوديسا وإلى آخره! يقول بأننا في حاجة ماسَّة إلى أن نكفَّ عن عبادة الأشخاص والكيانات، وأن نَكُفَّ عن تكريس صورتهم كشرٍّ مُطلَق أيضًا، وأوافقه رأيه هذا بالكامل، ربما يكون هذا أكبرَ حوافزي للمضي قُدُمًا في كتابي الذي تستعصي ولادته؛ إذ ما نفع الأدب والفن إن لم ينقل معاناة الإنسان وسط تبدُّلات التاريخ وتحت وطأة عجلاته؟!

لا أُنكر أني بدأتُ مشروعي هذا بأنانية مُطلَقة (وهي بالمناسبة صِفةٌ ليس بوسع كاتب في العالم التنصُّل منها)؛ ولكنها لم تعُد دافعي الوحيد، بل لم تعُد حتى أكبر دوافعي لإنجازه. ينبغي أن أكتب، وينبغي لحكاية والدي أن تُقرأ، لا لأجلي، بل لأجل آلاف الشباب الذين ودَّعوا شبابهم باكرًا تحت آلة الحرب (وبعضهم فوقها!)، لأجل أولئك الأطفال ذوي الوجوه المتعبة، ذوي الوجوه الكهلة التي لا تناسبهم، وجوه يتسرَّب منها حزنُ حربٍ مَضَت، أو دمع حرب قائمة، أو خوف من حرب قادمة... لأجل أجيال آتية، عليها ألَّا تكرِّر المأساة، عليها أن تقفز خارج عجلة الجنون والكراهية والحقد، عليها ألَّا تعاني كل هذا الصراع الذاتي والتخبُّط الذي تعاني منه سارة مثلًا، بالتالي تنقذ نفسها من حتمية الحرب... تسألني سارة: «ما دخلُكَ؟ أنت لست ليبيًّا ولا تقيم بيننا!»، وأرى أني أحمل بشكل ما المسؤولية؛ فالمعرفة مسؤولية!

حسنًا، قد أبدو طموحًا أكثر من اللازم، ومغرورًا أيضًا بكل هذه الثقة التي أضعها في تأثير مشروع كتابي على قُرَّائه –هذا إن كان ثمة قُرَّاء سيهتمون به حقًّا–، ولكني لستُ كذلك، فالكتاب –على ما أرجو– لن يكون أكثرَ من دعوة للخَوْض في هذه المساحة من إعادة النظر ومحاسبة ذاتية دون جَلْدٍ أو تمجيد، والتغيير الحقيقي هو حركة تراكُميَّة لا تحدث بين يوم وليلة نسمِّيها مباركة، أو مجيدة! التغيير الحقيقي هو ذاك التأثير الذي تُحدِثه قطرات الماء بنعومة شديدة، وبتكرار منتظم، فوق الصخر.

الحمقى فقط هم مَن يخضعون لقاعدة التاريخ، حين يقرِّر إعادة نفسه، وشخصيًّا لستُ مستعدًّا لأَسْر الماضي، لن أرضى بأن تستعبدني ذكرى ما أو فكرة، فما بالك بذكرى لم أتحكَّم بها، وفكرة لم أؤمن بها ولم أتبنَّها... وأتساءل كثيرًا محاوِلًا وضع نفسي في موقع والدي تارةً، وفي موقع جدِّي تارة أخرى، أينبغي للمُعارِض أن يقتات وينمو تحت ظلِّ أيديولوجياتٍ قد تضعه يومًا ما في موقف الاختيار بينها وبين مصلحة إخوته ووطنه؟

كما أن المسألة لم تعُد مسألةَ كتابٍ فقط... إنها أيضًا مسألة روح مُعذَّبة ربما تنتظر مَن ينصفها، ومن يقتصُّ لأجلها، أنا سأفعل... وسأقتصُّ لوالدي برواية مزوَّدة بكاتم صوت، كذاك الذي زُوِّدَ به المسدس الذي اغتاله... أجل، سيكون الكتاب روايةً لا سيرة، كانت هذه نصيحة توماس العزيز، النصيحة المنقذة؛ فأنا لن أؤذي أيًّا مِمَّن شهدوا، أمي لن تُجنَّ، سارة لن تتأذَّى بذِكْر والدها باسمه صراحة، وبرَكة سيتنفَّس الصعداء... وفوق كل ذلك فإن ابتسامة أمي ولون الربيع الذي عاد لوجنتيها تزامُنًا مع اقترابه يستحقَّان تغيير الخطة، إذ تحسَّنَت علاقتي بها، وعادت المياه تنساب سَلِسَةً رقراقة من ينابيعها منذ عَلِمَت بأن كتابي سيكون «مُجرَّد» رواية، وبهكذا لن تُجزم بأيٍّ ممَّا ذُكِرَ بخصوص الخالة غزالة (غريمتها الغريبة)، ولن تُصدِّق بالطبع النهاية القاسية، هذا في حال تجرَّأَت وقرأته.

بعد انتهائي من تسجيل شهادة برَكة دخلتُ في نفق مظلم لأسبوع كامل، ولم أخبر أمي بالحقيقة التي تجهلها... هذا –في النهاية– ما جنيتُه على نفسي... تأرجَحتُ بين رفض وقبول، بين إنكار وتصديق... بين حُبٍّ وبُغضٍ متطرِّفَيْن...

ولكني استسلمتُ أخيرًا، وقرَّرتُ أن أُحرِّر نفسي، وأن أُحرِّر والدي من كل تلك القيود التي ودَّ لو تحرَّر منها بنفسه ولم يستطع، وحين قارب على الهرب التقطه الموت...

تحوم في رأسي مؤخَّرًا ذكرياتي مع جدِّي وكأنما روحه تحاول مصالحتي، أرى مشاويرنا لدروس اللغة العربية وتحفيظ القرآن، والتي كان يحرص فيها على ابتياع ما لذَّ وطاب من السَّكاكر عند العودة إلى البيت مساءً بعد سقوط قرص الشمس في الأفق... وأُفكِّر، كم مرة وخزه ضميره؟ أتراها ملامحي التي تطابقَت مع ملامح والدي كانت عقابًا إلهيًّا له! ما زلتُ أرى ارتعاش شامَتِه الملاصقة لأنفه يوم تخرُّجي من الثانوية ثم من الكلية وكأنه بالأمس، كان ارتعاش الشامة دليلًا على انفعاله عاطفيًّا واقترابه مقدارَ شَعرَةٍ عن البكاء، إلا أنه –كمعظم الرجال الليبيين– كان يأنف الدَّمع.

أفكِّر بكثافة في كل معارفه وأصحابه الذين مرُّوا على بيتنا، أو الذين تردَّدوا عليه في المطعم خلال ساعات مُلازَمتي له أيام العطلة، مَن منهم هذا الذي حرَّضَه وأصدر أمره بإعدام والدي دون منحه فرصة للدفاع عن نفسه؟ وبقدر ما أذكر منهم تنتابني مشاعر قويَّة بأنهم أكثر ممَّا رأيت... لاحظتُ كثرتهم خلال أيام العزاء، أكثرهم لم أتعرَّف إليه، رجال في عمر برَّكة، رجال في عمر جدِّي أو أكبر، ورجال في عمر والدي لو بقي حيًّا، بجنسيات وأعراق مختلفة وإن جمعتهم نهاية المطاف الجنسية الأمريكية، لفَتَ نظري –على سبيل المثال– كهلٌ بعَينٍ واحدة، عين بكت نصيبَها ونصيبَ الأخرى دمعًا حارًّا حتى خُيِّل إليَّ أنه يعرف جدِّي أكثر من البقية! كيف إذًا لم ألحظه من قبل؟

حين سألتُ برَّكة أخبرني بأنه عجوز مهاجر من إحدى دول الاتحاد السوفييتي السابق، هارب من الفقر والعَوَز، وقد مرَّت والدته بتجربة بائسة إثر إعدام أبيه ظُلمًا، فما أكثر الظلم في هذا العالم... يقول برَّكة بأنه رجُلٌ عاش حياته يمقت الاشتراكيين والشيوعيين على حدٍّ سواء، ولا يرى في الاشتراكية إلا نُسخةً أكثر تشوُّهًا عن الشيوعيَّة... لطالما ردَّد بأن الشيوعيِّين هُم مَن قتل والده إعدامًا، وقتلوا أمه قهرًا، وبأنهم رأس الظلم في هذا العالم وسبب بؤسه، وبأنهم رُسُل الظلام الذين سيلعنهم المسيح وكلُّ الأنبياء، هو مسيحيٌّ متديِّن، ولكن يبدو أن طفولته التَّعِسة أثَّرت على سلامته الذهنية، أمَّا ما يعمل وما الذي يربطه بجدي فهذا ما لم أعرفه أنا ولا برَّكة.

وحين أُمعن التفكير في كل هؤلاء المعذَّبين، باختلاف توجُّهاتهم، أحلامهم وأوجاعهم ومآسيهم؛ أدرك كم هو حظٌّ عظيم أن يمرَّ المرء على هذه الدنيا كعابر سبيل، فلا يبيت في سجنٍ ذليلًا، ولا في مستشفى متهالكًا عليلًا، ولا يعيش في بلد تعاني أوبئةً أو مجاعاتٍ أو حروبًا! هل من الممكن حصول ذلك؟ باعتباري ابن أسرة مهاجرة أظنُّ بأنني واحد من أولئك القِلَّة المحظوظة، غير أن التجربة أحيانًا محلُّ حَسدٍ، خاصَّة حين تكون السِّمادَ الذي يحتاجه الكاتب لكتابة عمل عظيم، لستُ صاحِبَ طائرة ورقية* عاش بين وطنين، وشهد ما قبل وما بعد التغيير، وربما هذا ما يبرِّر منطقيَّتي في الكتابة أوَّلَ ما بدأتُ العمل، دون مشاعر ولا أفكار مدفوعة كعربون.

قد يكون كتابي هو أكبر حماقاتي، ولكننا نحتاج بين الحين والآخر لارتكاب بعض الحماقات الجميلة، حماقات من نوع الإيفاء بوعود قطعناها لأنفسنا، وإن كان في ذلك حصدٌ للمزيد من الكراهية التي تُغرق العالم. أجل، أنا واحد من

الحمقى الذين لا يبالون بحصد كراهية الجميع ثمنًا للحظة صدق... الصدق هنا ليس خيارًا مترفًا، والصدق لا يكون صعبًا وحقيقيًّا إلا حين يصبُّ عكسَ مصلحتنا! قد يحمل كتابي فكرةً نصف مقبولة عند قرَّائه جميعًا بمختلف أطيافهم الجهوية والسياسية والقبلية، وهذا خير من فكرة مقبولة بشكل تام لدى طيف واحد...

راوَدَني مؤخرًا كابوس متكرِّر، حرمني شهوة النوم، رأيتُ فيه جدِّي يقف عند نافذة مبنى ما، مُصوِّبًا مسدَّسه نحو والدي الذي كان يظهر لي بصورة أوضح ممَّا رأيته بها في صوره، رافعًا يده الممسكة بمظروف أبيض طالبًا سيارة أجرة في شارع مزدحم، ناديته من طرف الشارع المقابل، حاولتُ تحذيره ووَجَدتُني أصرخ بلهجة ليبية شرقية: (عَليّ.. رُدْ بالك... ارجع

ارجع!...)، وفي اللحظة التي لمحني فيها تفجَّر الدم ينبوعًا من منتصف جبينه، بكيتُ وأنا أرى جَدِّي ينتحب عند النافذة متطلِّعًا لضحيته، حاولتُ أن أسأله (لماذا؟)، رغم أني أعرف السبب، ولكن صوتي خذلني، شيء غريب لاحَظتُه على جَدِّي في الكابوس، لقد كان بعينٍ واحدة، الأخرى مُضمَّدة بقطعة سوداء مثبتة بخيطٍ يلفُّ على رأسه، تمامًا كتلك التي على عين العجوز الذي رأيته بين المُعَزِّين... جيِّد أن مُخيِّلَتي أثناء النوم تساعدني على تخيُّل المشهد الختامي وتقوم بنصف الكتابة! لِمَ لا؟ لِمَ لا يكون القاتل هو صاحب العين الواحدة؟ هي رواية في نهاية المطاف... وهل يهمُّ مَن القاتل حقًّا؟! مؤمن أم مُلحد، ثوريٌّ أم مرتزق، صاحب قضية أم صاحب حساب مصرفيٍّ... فالمسألة مسألة مصادَرَة حيوات لا حياة واحدة، وحُكمٌ غيابيٌّ دون دفاع لا يمكن تبريره.

«عزيزي توماس...

كما نصحتني؛ سيكون كتابي سيرة متنكِّرةً في صورة رواية (مستوحاة من بعض الأحداث الواقعية)، ربما هكذا هي الروايات: نصف حقائق، ونصف شخصيات واقعية، يخشى كُتَّابُها عليهم أو منهم، أو من قرَّائهم عليهم، فيتظاهرون بأنهم يكذبون، إنما بأناقة.

حدِّدْ موعدًا قريبًا يا صاحِ كي نتناقش أكثر حيال أسماء الشخصيات، وسَيْر الحبكة...

لقد بدأتُ بالتعافي.

آدم علي المرابط».

---

* إشارة إلى خالد حسيني صاحب رواية «عدّاء الطائرة الورقية».

البدايـــة